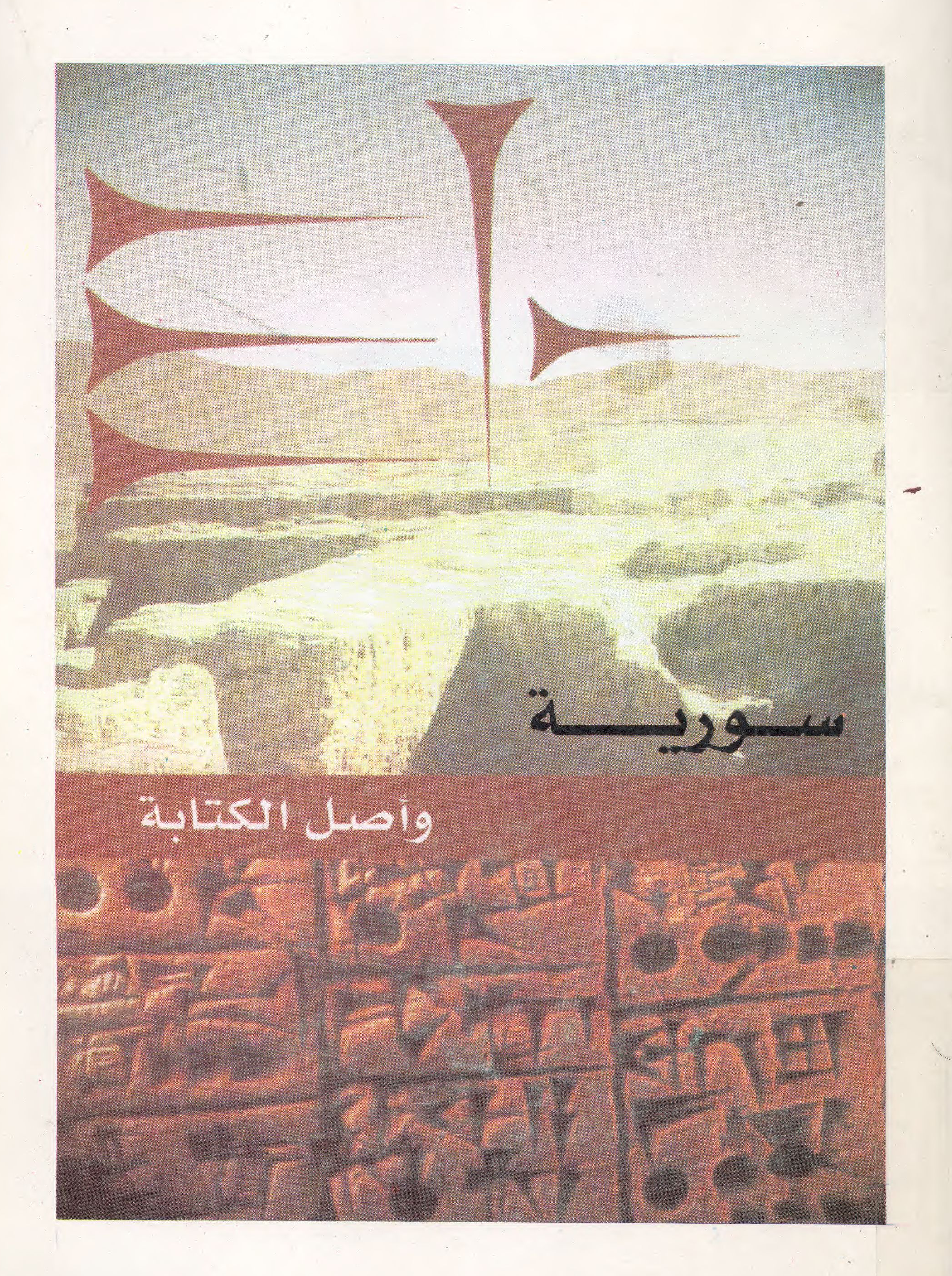

سورية
وأصل الكتابة

إهـــــــداء ٢٠٠٨

زارة الثقافة - المديرية العامة للآثار والمتاحف

الجمهورية العربية السورية

سـوريـة

وأصل الكتابة

دار بريـپولس

سورية

وأصل الكتابة

معرض نظم برعاية

جلالة الملك البير الثاني
ملك بلجيكا

السيد الرئيس حافظ الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية

لجنة الشرف

السيد جان – لوك ديهايين
رئيس مجلس الوزراء في الحكومة الفيدرالية

السيد فيليب مايشتات
نائب رئيس مجلس الوزراء
وزير المالية في الحكومة الفيدرالية

السيد لوك ڤان دن براند
وزير ورئيس الحكومة الفلمنكية

السيد شارل پيكي
وزير ورئيس منطقة بروكسل العاصمة
وزير الثقافة للمجموعة الناطقة بالفرنسية في بلجيكا

السيد جوزيف ماريت
وزير ورئيس المجموعة الناطقة بالألمانية في بلجيكا

السيدة لوريت أونكلينكس
وزيرة ورئيسة المجموعة الناطقة بالفرنسية في بلجيكا

السيد لوك مايرتينس
وزير الثقافة في الحكومة الفلمنكية

السيد فيليب جوتارد
السفير البلجيكي في الجمهورية العربية السورية

الأستاذ الدكتور جان – لوي ڤنهيرڤيغيم
عميد جامعة بروكسل الحرة

الأستاذ الدكتور آندريه أوستيرلينك
عميد جامعة لوڤن الكاثوليكية

فيكونت اتيين داڤينيون
رئيس المؤسسة البلجيكية العامة

السيد المهندس محمود الزعبي
رئيس مجلس الوزراء في الجمهورية العربية السورية

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

السيد ناصر قدور
وزير الدولة للشؤون الخارجية في الجمهورية العربية السورية

السيد صبحي حرب
محافظ الحسكة

الأستاذ الدكتور سلطان محيسن
المدير العام للآثار والمتاحف

الدكتور هاني حبيب
القائم بالأعمال
للجمهورية العربية السورية في بلجيكا

هذا المعرض تم تنظيمه من قبل وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف،
في الجمهورية العربية السورية، جامعة بروكسل الحرة
وجامعة لوڤين الكاثوليكية وذلك بدعم من المؤسسة البلجيكية العامة
بمناسبة مرور ١٧٥ سنة على تأسيسها

اللجنة التنفيذية

السيد جان - جاك ماسار
أستاذ في جامعة بروكسل الحرة
مدير الاتصالات والمصادر الإنسانية
في المؤسسة البلجيكية العامة

الأستاذ الدكتور سلطان محيسن
المدير العام للآثار والمتاحف في
الجمهورية العربية السورية

المفوضية

الأستاذ الدكتور إريك جوبيل
جامعة فريجي في بروكسل

الدكتور أنطوان سليمان
متحف حلب

اللجنة العلمية

الدكتور يوآخيم برتشنايدر
جامعة ڤيلهيم في مونستر / ڤيستفالن

الأستاذ الدكتور إريك جوبيل
جامعة فريجي في بروكسل

الدكتور مارك لوبو
المركز الأوربي لدراسة المناطق الرافدية العليا (ECUMS)

الأستاذ الدكتور لوتشيو ميلانو
جامعة كا فوسكاني في البندقية

الأستاذ الدكتور فيليب تالون
جامعة بروكسل الحرة

الأستاذ الدكتور كاريل ڤان ليربيرج
جامعة لوڤين الكاثوليكية

الأستاذ محمد قدور
مدير شؤون المتاحف

الأستاذ الدكتور عادل عبد السلام
جامعة دمشق

الدكتور عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية

الأستاذ بشير زهدي
الأمين الرئيسي في المتحف الوطني بدمشق

الآنسة هزار عمران
مديرة المعهد المتوسط للآثار والمتاحف في دمشق

الدكتورة يسرى الكجك
أمينة قسم آثار ما قبل التاريخ في المتحف الوطني بدمشق

الدكتور فاروق إسماعيل
جامعة حلب

الدكتور أنطوان سليمان
متحف حلب

الأستاذ أسعد المحمود
مدير متحف دير الزور

الدكتور ميشيل المقدسي
المديرية العامة للآثار والمتاحف

الأستاذ أحمد فرزة طرقجي
نائب مدير مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري

اللجنة التنظيمية

الأستاذ الدكتور إريك چوبيل — محمد قدور
ليليان تاكاير — طوني جروج
أودري بوسويت — ميشيل المقدسي
ناهدة الحموي

المعرض

الدراسة والتنسيق التقني

فريديريك دو سميدت

تصوير المشاهد

تراس – بروكسل

تحرير النصوص والشروح

إريك چوبيل — ماري – ايف ستينويت
آن غوديريس — فيليب تالون
مارك لوبو — كارل ڤان ليربيرج

تنظيم الدليل

جينيريس – بروكسل

انتقاء القطع الأثرية

إريك چوبيل — ميسر بيرودي
مارك لوبو — أسعد المحمود
والتر سالابيرجيه — أنطوان سليمان
ماري – ايف ستينويت — عبدو أصفري
يسرى الكجك — ناهدة الحموي

معاينة وتقدير القطع الأثرية

چايرييلا ڤويت
أنطوان سليمان

تنفيذ النشاطات على الشاشة

ماكس ديزاين، مونستر

تحضير الوسائط السمعية والبصرية

ويلفريد بوسيه — أوريكا، مركز العلوم الفنلندية
آچفا – جيڤايرت — مشروع الأرشيف الرسمي الفنلندي حول آشور
جامعة لوڤين الكاثوليكية

نقل القطع الأثرية

مارتينس انترناسيونال آرت ترانسبورت

شركة الضمان

آون يويلس وبيچولت

الدليل

النشر العلمي
الأستاذ الدكتور ڤيليب تالون
الأستاذ الدكتور كاريل ڤان ليربيرچ

وضعت النصوص من قبل

الدكتور پيتر اكرمانس
متحف ريجك ڤان اودهيدن لايدن

الدكتور عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية في المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق

الدكتور يوآخيم برتشنايدر
جامعة ڤيلهيم في موتستر / ڤيستفالن

الأستاذ الدكتور ميشيل بروز
جامعة بروكسل الحرة

الأستاذ الدكتور جاك كوڤان
مدير الأبحاث في المركز الوطني للبحث العلمي، جاليس / بيرياس

الأستاذ الدكتور دومينيك شارپان
جامعة باريس الأولى
المدرسة التطبيقية للدراسات العليا

الدكتور روني ديكورت
جامعة لوڤين الكاثوليكية

الأستاذ الدكتور مانفريد ديدتريش
ورئيس تحرير مجلة الدراسات الأوغاريتية

الأستاذ الدكتور ديتز – أوتو إدزار
معهد الدراسات الآشورية والحثية في جامعة ميونخ

الدكتور عادل عبد السلام
جامعة دمشق

الإستاذ حميدو حمادة
متحف حلب

الأستاذ الدكتور فاروق اسماعيل
جامعة حلب

الاستاذ الدكتور هارتموت كونه
قسم الدراسات القديمة للمناطق الآسيوية في جامعة برلين الحرة

الأستاذ الدكتور أميلي كورت
قسم التاريخ في جامعة الكوليج في لندن

الدكتور مارك لوبو
المركز الأوربي لدراسة المناطق الرافدية العليا

الأستاذ أسعد المحمود
مدير متحف دير الزور

الدكتور روجير ماثيوس
المعهد الأثري البريطاني في أنقرة
معهد الآثار في جامعة الكوليج في لندن

الأستاذ الدكتور بيوتر ميكالوڤسكي
قسم الدراسات الشرق أوسطية في جامعة ميشيغان – آن هاربور

الأستاذ الدكتور لوتشيو ميلانو
قسم علوم الشرق الأوسط القديمة
جامعة كا فوسكاني في البندقية

الأستاذ الدكتور ميكيل موليست
قسم الآثار في جامعة برشلونة الحرة

الأستاذ الدكتور سلطان محيسن
المدير العام للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية

الأستاذ الدكتور هانس نيسن
جامعة برلين الحرة

الدكتور ڤالتير سالابيرجير
معهد الدراسات الشرقية في جامعة لايبزيغ

الدكتور أنطوان سليمان
متحف حلب

الأستاذ الدكتور فيليب تالون
معهد التاريخ واللغات الشرقية
جامعة بروكسل الحرة

الأستاذ أحمد فرزت طرقجي
نائب مدير مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري

الأستاذ الدكتور كاريل ڤان ليربيرچ
قسم الدراسات الشرقية والسلافية في جامعة لوڤين الكاثوليكية

السيدة چابريلا ڤويت
قسم الدراسات الشرقية والسلافيه في جامعة لوڤين الكاثوليكية

الأستاذ الدكتور پاتريك ڤامباك
جامعة لوڤين الكاثوليكية

الدكتور طوني ويلكنسون
المعهد الشرقي في شيكاغو

وضعت الحواشي من قبل

آ. ڤينه	ن. ڤانديروست
آ. چوديريس	و. نيوڤنهويس
د. ستوردور	ف. تالون
ا. چوبيل	پ. ماتييه
إ. ريهم	ت. بوي
إ. روڤا	ج. برتشنايدر
ج. جانس	ف. ڤيراردي
ل. ميلانو	ف. ڤان دير شتيد
م. لوبو	و. سالابيرجيه

تنظيم عمليات التحرير
ليليان تآكايرت
اودري بوسويت

تنظيم الدليل
جينيريس – بروكسل
مركز الباسل في المديرية العامة للآثار والمتاحف

الترجمة

ميشيل بروز	بشير زهدي
آن چوديريس	ميشيل المقدسي
سوزان چايت	هزار عمران
اريك چوبيل	يسرى الكجك
ڤيليب تالون	إيمان سنديان
بول لويس ڤان بريغ	غادة الحسين
فيرونيك ڤان دير ستيدي	فرجينيا ڤيراردي

التدقيق العام للترجمة العربية
محمد قدور

تنظيم الخرائط
الدكتور مارتان سوڤاج

التصوير الفوتوچرافي
پول لوي

الناشر
بريبولس – تورنهوت

مصادر الصور الفوتوچرافية
دار النشر بريبولس – تورنهوت
متحف برلين
ڤيلفريد بوسييه

الطباعة
دانيلس – تورنهوت

الشكر

نخص بالشكر كل من قام بتقديم مساهمته في تنظيم وتنفيذ هذا المعرض، وخصوصاً
ولفريد بوسي ونداء الأسمر لتنفيذهم الفيلم الوثائقي عن الكتابة في سورية

* * *

مؤسسة بروميتيا وبشكل خاص السيدة آن جوتارد التي وجهت اهتمامنا الى مشروع الحفريات في موقع تل بيدر

* * *

السيدين دوينز وجاكسين من السفارة البلجيكية في دمشق لمساعدتهما أثناء زياراتنا المتكررة الى دمشق

* * *

جان غيرييل المستشار القضائي السابق في المؤسسة البلجيكية العامة، لمساعدته وصبره في تنفيذ هذا العمل المضني

* * *

العاملين في المديرية العامة للآثار والمتاحف لمساهمتهم وتعاونهم في تنظيم المعرض وإنجاز الدليل

* * *

جمعية اجفاجيفاريت

* * *

وبطبيعة الحال لكل الأشخاص الذين ساهموا في الاعداد والتنظيم من مختلف المتاحف والمعارض البلجيكية
وكل من قدم خبرته في شتى المناسبات

الشمس والشرق والإناء الزجاجي

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

لو كانت الشمس توضع في إناء من زجاج، لأتيناكم بالشرق شمساً ساطعة في هذا الإناء، شمساً تشع في ذاتها، ولغيرها أيضاً، لنا نحن بني البشر، الذين في طموحهم المشروع، وعملهم الدؤوب، لا يرون الشمس كوكباً بعيداً جداً، منيراً متوهجاً يمدّنا بالضوء والدفء فقط، وإنما يرون فيه قدرة إلهية خارقة أيضاً، وإبداعاً من صنع أنامل الفلك التي لا تجارى، وقرصاً يمنح كوكبنا الأرضي فيضاً من الفيض الذي تحدّث عنه المعلم الأول ابن سينا، معطياً إياه المدى الذي لا يُحدّ بحدود، ولا يقاس بمقياس، لأنه، في جغرافية الكون، المساحة الأبعد من الظن، وفي انطلاقة الروح هو كل الفضاء الذي تسبح فيه الكواكب، ما عُرف منها وما لم يُعرف بعد، ونحن على يقين من أنه، في فتوحات العلم سيعرف حتماً، وسيكون هذا المجهول الآن، هو المعلوم غداً وبعده وبعده، على مدار الزمن، في أثيرية انسياله التي لا تتوقف، ولن تتوقف أبداً.

ولئن كانت أمنية إحضار شمس الشرق إليكم في إناء مستحيلة، فإن إحضار هذا الشرق، في كل معطياته الإبداعية الحضارية، ليست بالمسألة المستحيلة، مادام التعاون الثقافي، في تجلياته المزهرة على أناملكم وأناملنا معاً، قد كان في وسعه، وسيكون في وسعه بشكل أكبر، أن يقيم جسراً بيننا، جسراً عجيباً، منسوجاً من قصص ألف ليلة وليلة، محاكاً من أساطير بابل، جسراً حجارته هي الكلمات الماسية، التي منها القصص ومنها الأساطير، و قضبانه الحديدية هي الأسلاك اللاسلكية، التي في تموجاتها الصوتية، صوت الشوق إلى المتعة والمعرفة، هاتين اللتين، في التوحد الذي لااجتزاء له، هما معطى إبداع منسجم، متناغم، كامل، شامل، جمع البشرية على اسمه في البدء، وسيوحدها على اسمه في الختام، حيث كرتنا الأرضية السمراء، تصبح يوماً بعد يوم، وأكثر فأكثر، وعبر هذا التوحد، قرية صغيرة كبيرة للخير، لاقرية صغيرة كبيرة للشر، كما يتمنى أعداء الثقافة، أعداء الحضارة، أولئك الذين يسعون إلى عولمة تنتفي منها الحرية الفردية الإنسانية والإبداعية، وتمحي منها الحضارات في تنافسها إلى ماهو أرقى، وتبقى حضارة متفردة واحدة، حضارة مهيمنة مسيطرة تلغي التلاقح الحضاري، وتجافي التفاعل، والتنافس، هذه الدوافع النبيلة، الهادفة إلى إحياء وتطوير الحضارة، بدل تعقيمها لقتل الخصب فيها، وتجميدها في ثلاجة الشره إلى الهيمنة، حيث التحجر يلغي جدلية الأخذ والعطاء، ويلغي، في النهاية، الحضارة نفسها، حين ينعدم التنافس فيها ولأجلها، هذا التنافس الحر، الشريف، النزيه، الذي هو سر إحياء الحضارات، وإبقائها فاعلة متفاعلة، معبرّة عن الذاتيات الإنسانية للبشرية في أرجاء المعمورة، كما الناموس الطبيعي للحياة ذاتها.

إن الثقافة، كما التاريخ، تحمل حقيقتها في موضوعيتها، والتبادل الثقافي، المؤسس على هذه الموضوعية، هو دائماً لصالح الطرفين المتبادلين ثقافياً، وما إقامة معرض «سورية وأصل الكتابة» في بلد عريق في حضارته كبلجيكا، إلّا النموذج الأسمى لهذا التبادل الذي أردناه، أنتم ونحن، والذي تتجلى غايته القصوى، في دفع الثقافة إلى الصدارة، وكلنا يعلم أن الثقافة، في وقتنا الراهن، هي في الصدارة، وبعدها تتطور العلاقات، في كل المجالات، على الوتيرة نفسها، ولنا كل الرغبة، وكل الحرص، على هذا التطور في التبادل الثقافي بيننا، وعلى مايليه من نفع متبادل في كل الحقول، وعلى جميع الأصعدة، وحين تكون الثقافة هي السفارة، فإن سفارتها هي المثلى، وسيطلع الشعب البلجيكي والأوروبي، الصديق، من خلال هذا المعرض، على نفائس حضارية، كانت أرض سورية، وستبقى منبتها وموئلها، وقد

كان للبعثة السورية ـ الأوروبية المشتركة التي تنقّب في تل بيدر، سبق الاكتشاف الذي نقدره تماماً. كما وأنه لشرف كبير أن يحظى هذا المعرض برعاية جلالة الملك ألبير الثاني، ملك بلجيكا، ورئيس الجمهورية العربية السورية حافظ الأسد، وأود بهذه المناسبة أن أنقل لكم تحياته وتمنياته بنجاح هذا المعرض، وأن أنوه بما له، منذ ربع قرن ونيف، من أثر كبير في رعاية عمليات التنقيب في سورية، وعنايته بها، وحرصه الدائم على دعمها، مادياً ومعنوياً، وتوفير كل المقومات اللازمة، للكشف عن الآثار وترميمها والحفاظ عليها.

إن عنوان معرضنا هذا، «أصل الكتابة»، ذو دلالة تاريخية واجتماعية، فمن الناحية التاريخية، تعود بنا المعروضات الثمينة، التي ستطلعون عليها، إلى قدم الحضارة السحيق في سورية، ومن الناحية الاجتماعية، تقدّم هذه المعروضات الأجوبة الحاسمة على التساؤلات العلمية حول موضوع «بداية الكتابة»، مؤكدة ما يقوله الباحثون الآثاريون من أن الكتابة كانت الجزء الهام من الثقافة، ووسيلة التعبير عن الأفكار وتجديدها وتخليدها، وأن الانسان الذي أبدع هذه الكتابة، هو سيد الإبتكارات والإكتشافات في كل العصور، قديمها والحديث.

لقد أظهرت بعثات التنقيب، مكتشفات أثرية مهمة في الأرض السورية بعامة، وفي موقع «جرف الأحمر» شمالاً بخاصة، وزوّدت هذه المكتشفات السادة الباحثين بمعطيات جديدة ومفيدة في بحوثهم ودراساتهم، تثبت أهمية هذه المنطقة العربية، ومدى إسهامها في نشوء الكتابة منذ أقدم مراحلها، وهي المرحلة المعروفة بالتصويرية، وأن قدماء المزارعين المستقرين في حوض الفرات، كانوا أول من حاول التدوين على ألواحهم الحجرية، بطريقتهم الخاصة منذ الألف التاسع قبل الميلاد، قبل نحو ستة آلاف عام من ظهور الكتابة عند السومريين في بلاد ما بين النهرين، ذلك أن بعثة التنقيب الأثرية السورية ـ الفرنسية المشتركة، العاملة في موقع «جرف الأحمر «اكتشفت أربعة ألواح حجرية عليها إشارات مبهمة، تعتبر محاولات أولى في التدوين، تجسّد جهداً مثيراً في اتجاه الكتابة، في عصر «كتابة ما قبل الكتابة». وقد اعتبرت هذه الشارات دليلاً وسطياً يقع في منتصف الطريق بين تاريخ رسوم لاسكو الفرنسية وتاريخ ابتكار الكتابة، موحية بضرورة إعادة النظر في الإعتبار المعطى للرسوم الزخرفية الفخارية الأولى، المنظور إليها من وجهة نظر جمالية وتجميلية فقط.

إن المعارض الأثرية هي أحد مظاهر النشاطات الحضارية، وهي تعبّر عن العلاقات الودية بين الحكومات والشعوب، وتشكّل أحد مظاهر الصداقة بين الدول، ومعرضنا هذا، الذي يؤكّد من جديد، الصداقة الوطيدة، والعلاقات الطيبة، بين سورية وبلجيكا، يُعرّف من خلال الوثيقة الأثرية بمراحل تطور الكتابة، منذ الألف الرابع وحتى الألف الثاني قبل الميلاد، من الإشارات التصويرية والرمزية إلى الإشارات المسمارية، الصوتية المقطعية، وحتى الكتابة الأبجدية. وهو يضم حوالي ٥٠٠ قطعة أثرية من القطع التي اكتشفت في مواقع مختلفة من أرضنا، مثل ماري، جبل عرودة، حبوبة الكبيرة، تل خويرة، إبلا، تل براك، تل بيدر، تل موزان، أوغاريت وغيرها. ومن أهم مجموعاته الرقم الطينية ذات الكتابة المسمارية، الأختام الاسطوانية والمسطحة، تماثيل عليها كتابات قديمة، وكذلك الدمى، والحلي المختلفة والآثار الفخارية، وغير ذلك، مما له أهميته البالغة في الدراسات الأثرية لتاريخ الحضارات.

ويسرني، بمناسبة صدور الدليل العلمي لهذا المعرض، الذي أسهم في إعداد بحوثه عدد من العلماء المختصين، السوريين والأوروبيين، أن أشكر المؤسسة العامة البلجيكية ممثلة بالسيد جان جاك ماسار، الممول الرئيسي لهذا المعرض، وأن أشكر رئيسي جامعتي لوڤين وبروكسل، الدكتور أ.ر أوسترلينك، والدكتور ج.ل. ڤانهر ڤيغم، المشاركتين في التنقيب، وإدارة وأعضاء البعثة السورية ـ الأوروبية المشتركة في تل بيدر، كما أشكر اللجنة المنظمة للمعرض، وكل من أسهم في حسن إعداده وترتيبه وتنسيقه، آملة، بل واثقة، من أن هذا التعاون العلمي المتميز، سيستمر بيننا لصالح شعبينا الصديقين، والتراث الانساني الذي نسعى جميعاً للكشف عنه وسبر أغواره.

إن الأرض، أمنا، كريمة في عطاياها، وهذه الكنوز الأثرية بعض تلك العطايا، رصدها التاريخ بأختامه السحرية، فجاء الانسان، هذا الجبار القادر المروّض للطبيعة، كوناً وكائنات، وفك الرصد، لابالكلمة الطيبة، كما يقال في الأسطورة، وإنما بالعمل، أسطورة الأسطورة، وقد عملنا، وعملتم معنا، فكانت الحصيلة العظمى، هذه المعروضات الثمينة وفيها إبداع الأسلاف، وفيها، أيضاً سرّ هذا الإبداع، الذي انكشف بالعلم والجهد، في عناقهما الأبدي، وفي تعاونهما لأجل تقدم البشرية، ولصنع معجزتها أيضاً.

وجهة نظر

شارل بيرتان

منذ تلك الليلة المختبئة في ذلك الماضي الذي يتعذر سبره، حيث ظهر وللمرة الأولى، ذلك الإنسان القرد ذو الجبهة المنخفضة الموغل في القدم، يجلس بجانب نار أحدثتها كتل من الأغصان، وينتابه شعور خفي، فيه انفعال ولّدته رؤية السماء المتلألئة بالنجوم. منذ ذلك الوقت، لم تعرف البشرية واقعة أعظم من اختراع الكتابة.

ويؤكد بعضهم، وفي مناسبات عدة، بالرغم من إدراكي أنه من العبث إشادة المنارات في مسيرة العصور، إن ولادة الكلام المبين الذي سبق بطبيعة الحال ظهور الكتابة، له دلالاته ومعانيه ويُظْهِرُ وبشكل نهائي تفوق الجنس البشري الحاسم على الحيوان.

لكن الكلام، في أغلب الظن ليس إلا ثمرة تطورٍ طبيعي وتكييفٍ عضوي للجنس البشري، في حين أن الكتابة هي نتاج ابتكارٍ متعمد له مكانته ضمن نظام التطور الفكري، وارتقاؤها ليس إلا نتيجة فعلٍ خلاق وقفزة في الإحساس البشري المرهف، الناتج عن رغبته في تخيل الأشياء قبل تحقيقها، وإدراكه بوجوب إكمال وإغناء قدرات اتصاله الشفوية الزائلة والمتبخرة وحرصه الشديد على ديمومة رسالته.

ستسمحون لأديب دفعه فضوله لمعرفة المغامرة البشرية، والذي يجهل ما أعطته العلوم الجديدة، والاكتشافات الأثرية في ميادين الكتابة القديمة، أن يحدثكم عن الجانب «الشعري» لتلك المغامرة والمسيرة التي استدرجت الإنسان للخوض في غمار ذلك الإبتكار. هذا الابتكار، ألم تكن نزعته على غرار غالبية الإبداعات الفنية في إبراز تصوير مجازي للغةٍ منطوقة، فيه من الإقناع ما يجعله في حيّز التداول كلما دعت إليه الحاجة.

وهكذا يكون الإطار المادي قد أكتمل باستعمال الركيزة والاستعانة بأشكال مكونة من رموز ملائمة، ومن هنا تكون الكتابة، وتحت وطأة الضرورات الاقتصادية، ليست إلا المعين الأساسي للذاكرة، ووسيلة الإسناد المتعذر دحضها والأداة الرئيسة للاتصال بين البشر.

والعلم، الذي ما برح يجاهد خلال خمسة أو ستة آلاف سنة لحلٍّ لعثمة الحضارة، ورموز تلك الكتابة الأولى للبشرية، يصل وبشكل عفوي إلى نجاحاته الأولى، وبفضل حدسه ودقة رؤيته للأشياء يتوصل، كسائر الأمور، إلى معرفة تطورها، بالرغم من تردده ووقوعه في مطبات الضلال. لكن إصراره سيمكنه من متابعة مسعاه (ودليل هذا المعرض يقدم الشواهد المدهشة) وهذا شاهد رائع على ثقة هؤلاء المتمرِّسين بالجنس البشري.

من بين الحقائق التي لقنها العلم، أنه بالرغم من السعي الحثيث للبقاء، فإن البشر الزائلين لن يتواروا بشكل نهائي، لأنهم اهتموا بنحت دلالات وعلامات على الحجر، تشير إلى مرورهم، تُرِكَت فوق حواف الدروب التي سلكوها. كذلك فقد تعلمنا أن الإنسان ومنذ أزمنة بعيدة تدفعه الحاجة إلى تسجيل رغبته بالبقاء. هذه الرغبة الساخرة والمثيرة للعواطف يحققها بالحفاظ على صيرورته والمحاولات المستمرة لتجسيد حركته ووقائع حياته التي تشكل إحدى نزعات فكره الأساسية، سجلها بالصوت أو بالكلمة في المعبد أو على المنحوتة.

من بين الحقائق التي نتذكرها، أن تاريخ الإنسان من عصرٍ إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى، يختلط مع ملحمة الأشكال التي تتدفق متموجة بشكل مستمر دون نهاية، وأن هذا التحريض الذي لا تعيه الذاكرة يدفعنا ومنذ العديد من القرون للإيمان بالوجود وبشكل قوي بعيداً عن فكرة الموت.

وهكذا فإن التقدم المستمر لمعارفنا، وللأحداث التي مرت والنصوص التي كتبت، وللأشخاص الذين عايشوا ذلك العالم القديم، كل هذا أشبه ما يكون في عالم اليوم بآلة مؤتمتة، غايتها التحري عن الزمن في عصر بدأت فيه المحاولات للكشف عن الفضاء الخارجي، في إطار الحلم لتوسيع مملكة الإنسان حتى تخوم النظام الشمسي. لذا فمن واجبنا أن نحكم بالعدل على هؤلاء الآثاريين وعلماء الخطوط واللغات اللذين استنفروا وبفضول

صارم لسماع الماضي السحيق لهذه الأرض. وكما قال باسكال: «لا يمكن أن تظهر عظمة الأشياء ببلوغ أحد الأطراف، إنما بقدرتنا على السيطرة عليهما معاً». ومن هنا فإنني على قناعة تامة بعدم وجود أي تناقض بين الحركتين المتزامنتين للفراغ والزمن، وأظن أن هذا الانجذاب المجسي ليس إلا جزءاً تكاملياً يقذف بخيال الإنسان نحو السماء البعيدة، وأحلام الآلهة الميتة، وإن المستقبل سوف يظهر عظمة هاتين الحركتين بإخضاعهما النمو التقني لمتطلبات الذاكرة أكثر من متطلبات الكشف.

كل ما أخشاه ونحن على مشارف الألف الثالثة أن يكون استنطاقنا عن الكتابة ومستقبلها، لا بل عن مصير ثقافتنا بشكل عام أكثر مأساوية. فهي ليست آمنة من الخطر المداهم للتقدم الحاصل في تقنيات الاتصالات والأتمتة، فالحيز الذي تنتشر فوقه يتضاعف ليسيطر على حياتنا اليومية وفي تكوين العالم الذهني لأولادنا، والتحولات التي تعاني منها الدراسات التقليدية في التعليم الحديث أدت إلى تناثر وتهجير وتفتيت حيوية الشباب في هذه الأيام بالإضافة إلى أمور أخرى أكثر مأساوية، أظهرها جورج ستينير على شاكلة إنذارٍ مؤثر للحفاظ على التناسق بالعلاقات المتناغمة التي قامت عليها حضارتنا الغربية منذ أكثر من ألف عام.

وأذكر أنني شاركت في ندوة عامة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كان محورها قلق بعض المثقفين للنتائج التي قد يولدها انتشار التلفاز. منذ ذلك الزمن حدثت تطورات من طبيعة مشابهة أقلقتنا لخطورتها وتشعبها.

وأذكر جيداً أنني أظهرت في مداخلتي التدهور الحاصل والذي لاحظته عند مساءلتي عن نوعية القراءات التي قام بها أحد أبناء أصدقائي الموسيقيين. لقد كان حيوياً، جذاباً مغرماً بموسيقى الجاز والمغامرة ولا يتجاوز عمره الـ ١٢ أو ١٣ سنة. وقد سألته إن كان يحب جول ڤيرن فأجابني بطبيعة الحال بالإيجاب و«جزيرة الكنز» فبادر بالموافقة، و«الفرسان الثلاثة» فعبر عن إعجابه ومعرفته الكاملة. وعلى الفور عبرت عن بهجتي وهنأته على فضوله ومعلوماته، فبادر بالإجابة ونشوة الانتصار تبدو واضحة على ملامحه «لقد شاهدت هذه القصص في التلفاز!»

لا أخفي عليكم، ما حصل، كانت بالنسبة لي لحظة صعبة بدت نتائجها واضحة على ملامح وجهي بدليل أن الطفل كان ينظر إليَّ بنظرات ساخرة كتلميذ تمكن من إحراج أستاذه. وهذا الذي حصل بالفعل، فقد كنت أمامه مغبَّياً كمن يحمل سحراً ضائعاً لا فائدة منه، مثقلاً بالسعادة غير القادرة على التواصل وبذكريات خفية عن طفولتي في الزمن الذي كنت أجاهد لمتابعة قراءاتي في الساعات المنوعة مستعيناً بمصباحي الصغير كي أضيء كتابي الذي أخفيه تحت غطاء سريري. بمصورات تلك الجزيرة التي كنت أخطّها لمرات ومرات على دفاتر مدرستي باحثاً عن مسيرة الباخرة الغارقة في جزيرة الـ«لينكوان» بين مستنقعاتٍ سكنها البط البري وتنتشر فوقها بقايا من أخشاب الـ«جاكامار». كما كنت قد أشرت، هذا الطفل ابن الموسيقي لن يتعرف أبداً على ما فعلت، وأتساءل إذا ما كان عزائي الوحيد أنه لن يشعر أبداً بما فقد.

واليوم، عندما أستعيد ذكريات ذلك الحوار، تلك الحكاية الصغيرة، تلك المواجهة بين جيلين أو عالمين، لا يمكن لي أن أمنع ذاتي من التأمل بذلك الرسم الهزلي، حيث يبين ذلك المريخي الذي وصل للتو إلى سطح كوكبنا، فطلب بثقةٍ من مستخدم محطة الوقود: «هل لكم من اللطف بإبعاد كلتي يديكم عن آذانكم وإعلام قادتكم بأننا قد وصلنا؟». نعم إنهم هنا لقد وصل خلفاؤنا، المُتَهَلِّوسون بعلب الأحلام والمتعطشون إلى الصور الإلكترونية، الذين ينتمون إلى عالم السمعيات والبصريات والمتحمسون إلى نظام الإنترنت. نعم إنهم هنا، لقد اجتاحوا الأرض.

أنا لست رسولاً كي أستطيع تصور ماهية عالمنا في القرن المقبل. ومن منّا يمكن له أن يدعي قدرته على معرفته؟ لكنني أخشى من أن يجد قانون غريشام الإقتصادي «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة» مكانته في الحيز الثقافي فنفقد عزتنا وباعث وجودنا. عندها سيرتحل الكثير منا.

لا أرغب في ختام هذه المقدمة أن أصور لكم المستقبل بتلك الأفكار الكئيبة. لكن ما أتمناه من أعماق قلبي أن أكون على خطأ. وأفضل أن أستعيد صورة ذلك الطفل الصغير الذي يعشق الصور ويجهل كل شيء عن الكتب كي أطمئنكم بأنه قد شاخ ونضج لا بل تغير، وهذا سيفتح لنا الآفاق للتفاؤل. ربما مثلنا، سيستمر رجال المستقبل باعتقادهم أنهم حلقة بسيطة من سلسلة لا متناهية؟ سيسرون مثلنا باكتشاف فرحهم الأعظم في جمع تلك الأحجار الصغيرة البيضاء التي زرعها قبلهم أناسٌ في الغابة كي ترشدهم عند عودتهم إلى الطريق القويم؟

ومهما يحدث غداً، اسمحوا لي أن أطلق امنيتي وثقتي بأن التطور البشري سوف يسمح دائما لنا نحن الصامدون أن نستمتع

بحرية أخيرة: حرية الاعتقاد بأن أي «تقدم» مستقبلي لن ينوب أبداً عن القوة الخفية لكتاب بين أيدينا، لتلك الدوائر المذهبة التي يتركها مصباحٌ في وحدتنا وعمق تلك الليالي التي عاشها شارل بليسني، الممزوجة بالضجيج العذب لتلك الصفحة التي وَلَّدَتْ في ذواتنا تلك السعادة المرتعشة.

مقدمة

الدكتور سلطان محيسن
المدير العام للآثار والمتاحف

الكتابة هي مصدر معلوماتنا الرئيسي حول الحضارات القديمة. وقد حظيت الكتابات القديمة بالكثير من البحوث والدراسات، وأصبحنا نعلم الآن بأن الكتابة التصويرية قد ظهرت لأول مرة في نهاية الألف الرابع ق.م، ثم تطوّرت إلى كتابة مسمارية مقطعية في الألف الثالث ق.م، وظهرت في منتصف الألف الثاني ق.م الأبجدية الأولى.

تبين بأن سورية، إلى جانب جنوب بلاد الرافدين، قد لعبت دوراً هاماً في نشوء وتطوّر الكتابة. دلّت على ذلك المكتشفات التي أتت من مختلف المواقع، وآخرها موقع تل بيدر، حيث وُجد أرشيف، كُتب بالخط المسماري، يعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م. كما كُشف، حديثاً، عن لوحات حجرية، تعود إلى الألف التاسع ق.م، وتحمل رموزاً غريبة قد تكون نوعاً من الكتابة، وهي بذلك أقدم دلائل توثيق معروفة حتى الان.

تم إنجاز هذا المعرض عملاً بتوجيهات السيد الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي يعطي أهمية خاصة للتعاون السوري ـ الأوربي. كما أن الدكتورة نجاح العطار، وزيرة الثقافة، قدّمت كل المساندة والدعم لإنجاحه.

شكرنا الجزيل لجميع الجهات البلجيكية والسورية التي ساهمت في انجازه.

البروفسور الدكتور جان ـ لوي ڤانهيرڤيغم

عميد جامعة بروكسل الحرة

إن مناسبة تنظيم معرض «سورية وأصل الكتابة» ليست إلا فرصة نادرة لتأكيد مدى متانة العلاقة القائمة بين جامعة بروكسل الحرة وتلك البقعة من العالم القديم الحافلة بالحضارات العريقة.

فعلى هذه الأرض السورية قامت أولى المخيمات القديمة في العصور الحجرية التي حققت الخطوات الأولى في انتقال المجموعات البشرية من الحياة الطبيعية الى مناطق معيشية ملائمة لحياة الإنسان. كذلك فقد تلاقت على هذه الأرض وعلى مدى سنين طويلة من التاريخ تأثيرات متعددة، أتتها من بقاع الأرض المختلفة كي تتلاقى في المجالات الثقافية واللغوية والدينية.

وفي هذا البلد المتعدد الثقافات مرت غالبية الحضارات القديمة منذ بدايات الأزمنة، فالسومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون والأموريون والحثيون والمصريون والآراميون أقاموا فوق هذه الأرض السورية بالمرور والإستيطان والاستقرار، وذلك خلال مراحل التاريخ القديم. كذلك فقد كانت هذه المنطقة مركز لقاء وصراع بين الشرق والغرب:

البارثيون والساسانيون والعرب والأتراك من جهة واليونان والرومان والبيزنطيون والفرنجة من جهة أخرى.

ساهمت سورية بمركزها المتوسطي، بفعالية في التجارة الدولية منذ أقدم الأزمنة وحتى العصور الوسيطة، فطريق الحرير كان مركز الجذب في مناطق بعيدة جداً لكثير من المنتجات والأفكار والمفاهيم الجديدة. كذلك فقد تدفقت الى الأرض السورية الترجمات الهامة من اليونانية القديمة الى العربية والسريانية للنصوص الفلسفية والطبية والتاريخية التي كان لها الدور الهام لقيام مذاهب النزعة الإنسانية في أوربة خلال الفترات اللاحقة.

ومن هنا فإنه ليس من المستغرب أن تكون هذه الأرض الغنية من النواحي الثقافية والحضارية مركز الاهتمام المباشر لجامعة بروكسل الحرة الواقعة في وسط أوربا و في مركز التقائها.

في حقيقة الأمر ترقى العلاقات العلمية القائمة بين جامعتنا وسورية إلى زمن بعيد وقد أخذت شكلَ تقاليد علمية في البيت الأثري في العديد من مجالات العهود القديمة، ونذكر على سبيل المثال حفريات مدينة أفاميا التي يقودها البروفيسور جان شارل بالتي وحفريات تل قنّاص بإدارة البروفيسور اندريه فينه، وذلك ضمن إطار حملة إنقاذ آثار المواقع المهددة بالغمر في بحيرة سد الثورة، بالإضافة الى أبحاث البروفيسور رولان تيفنان في تل أبوضنة وتل أم المرة في منطقة حلب.

واليوم أخذ هذا التعاون أشكالاً جديدة وذلك ضمن نطاق المجموعة الأوربية من خلال المشروع الرائد لحفريات تل بيدر الذي يجمع العديد من الجامعات الأوربية مع المؤسسات العلمية السورية. بطبيعة الحال شاركت جامعة بروكسل في دعم وتأسيس هذا المشروع من خلال البروفيسور فيليب تالون، وكانت ثمار النتائج التي تم الحصول عليها الدليل على نجاعة هذه الأعمال المشتركة بين الباحثين الأوربيين والسوريين والتي سمحت للطلاب المستجدين الخوض في غمار التجارب الصعبة في مجالات التنقيب والدراسات اللغوية.

وقد مكّنت هذه الأعمال من فتح صفحات جديدة من تاريخ الإنسانية، فبعد الأكتشافات العامة التي حصلت من قبل البعثة الأثرية الايطالية في موقع تل مرديخ، ها هي الجزيرة السورية تكشف عن الدور الذي لعبته كنقطة وصل بين مناطق العالم القديم من بلاد الرافدين وسومر الى مناطق السواحل السورية. وفي نهاية الأمر يوفر هذا المعرض الذي حظي برعاية ارفع السلطات السورية والبلجيكية، فرصة فريدة لتتويج هذا التعاون المثمر بين جميع هذه المؤسسات، ويتزامن مع العيد التأسيسي الـ ١٧٥ للمؤسسة البلجيكية العامة التي قامت بانجاز هذه التظاهرة الثقافية، ومن هنا فإن سعادتي كبيرة أن تكون جامعة بروكسل الحرة من بين تلك المؤسسات التي تشارك في تنظيم هذا المعرض.

البروفسور آندريه أوستيرلينك

عميد جامعة لوڤين الكاثوليكية

تشير رعاية جلالة الملك ألبير الثاني، ملك بلجيكا، وسيادة الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، على أهمية هذه التظاهرة الثقافية في نطاق التعاون والتفاهم المشترك بين سورية وبلجيكا بشكل خاص وبلدان الشرق الأوسط وأوربا بشكل عام. كما يسعد ويشرف جامعة لوڤين الكاثوليكية أن تسهم في تنظيم وإقامة هذا المعرض.

ترقى العلاقات المتبادلة بين جامعة لوڤين الكاثوليكية وسورية إلى أزمنة بعيدة. وقد كان لتأسيس الالما ماتر في عام ١٤٢٥ الأثر الأكبر والدور الحاسم في إظهار الثقافة والحضارة السورية بكل أبعادها وعلى الخصوص في مجال اللغات الكلاسيكية وبدايات المسيحية والعلوم العربية.

بفضل جهود العالم الإنساني إرامِسْ، تأسست في عام ١٥١٨ (الكوليجيوم تريلينغ) التي كان لها الدور الحاسم في قيام القواعد الأولى لدراسة العالم الشرقي والتي استمرت في الازدهار حتى يومنا هذا. وهكذا فإن قسم الدراسات الشرقية، بادر بتأسيس مشروع متعدد الاختصاصات، لدراسة حضارات وثقافات المناطق الرافدية الشمالية والذي تضمن برنامج عمل دراسي خاص للمستويات الجامعية العليا (الحلقة الثالثة) وبُحثت فيه بنجاح على المستويات الدولية، آثار وحضارات شرقي المتوسط.

في حقيقة الأمر، كان لسورية الدور الطليعي كصلة وصل أساسية في نقل العلوم القديمة، ولم يكتشف الغربيون الآداب والكتابة، البابلية والآشورية، وعلوم الرياضيات والفلك، إلا من خلال انتقالها عبر سورية وبفترات متأخرة، زمن الامبراطورية الرومانية. أضف إلى ذلك فإن قيام المسيحية الأولى ساعدت منذ تأسيس مركزها الأول في مدينة أنطاكيا وانتشارها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، على نشر التراث الثقافي السوري في غالبية المجتمعات الثقافية المعروفة في تلك الفترة.

وانتقلت المعارف القديمة من الجامعات النسطورية المعروفة في الرها وحرّان ونصيبين، وبواسطة مسلمي اسبانية، لتتأصل في مناطق أوربة الغربية المختلفة.

وبذلك استفادت الجامعات الأوربية من الفلسفة والعلوم الشرق أوسطية، وكان تأثير ابن سينا على الفكر الغربي لا يترك أي مجال للشك، فمؤلفاته في الفيزياء والرياضيات والميتافيزيقيا أحدثت في أوربا مشادات هامة بين المثقفين. بالإضافة إلى ذلك فإن قانونه الطبي بقي نقطة الارتكاز الرئيسة حتى القرن الثامن عشر، واستعمله أساتذة وطلاب جامعة لوڤين الكاثوليكية حتى زمن ماري - تيريز.

منذ عام ١٩٩١ تشارك مجموعة من جامعتنا في الحفريات الأثرية الأوربية ـ السورية في موقع تل بيدر، في إطار مشروع يجمع عدد من الجامعات والمؤسسات السورية والأوربية. بطبيعة الحال تدعم جامعة لوڤين الكاثوليكية هذا المشروع، وقد قمت مع الدكتور سلطان محيسن، المدير العام للآثار والمتاحف في سورية، بتوقيع اتفاقية تشكيل هذا الفريق. عندما أطلعني كاريل فان ليربيرج وجابريلا ڤويت، عضوا قسم الدراسات الشرقية في جامعتنا، على برنامج الأبحاث التقنية والبيئية، اقترحت عليهم فكرة قيام تعاون في مجال دراسة تاريخ وآثار سورية القديمة بين الباحثين والمهندسين التابعين لمركز الأبحاث الالكترونية الذي ترأسته لبضع سنين، وقد كان دور هذا المركز كبيراً في عدد من المجالات، وبفضل التقنيات التي قدمها تم إعطاء نتائج فوتوغرافية واضحة للرقم المسمارية. كذلك فقد شارك مركز دراسة علم الوراثة البشرية وقسم الكيمياء الهندسية في إظهار الكثير من المعطيات الأثرية المكتشفة في تل بيدر.

وهكذا فإن النتائج الباهرة التي تم التوصل إليها، ساعدت في الحصول على الدعم اللازم من المؤسسات الجامعية (Onderzoeksraad) والفيديرالية (Fonds voor Wetenschappelijk Onderzoek Vlaanderen) والمختبرات التقنية البلجيكية.

وفي الختام يسر جامعة لوفين الكاثوليكية أن تقوم بتنظيم هذه التظاهرة الثقافية بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية وجامعة بروكسل الحرة، ويسرني أن أقدم التهاني الخاصة إلى المؤسسة البلجيكية العامة التي قدمت دعمها ومساعدتها في تنفيذ هذا المعرض بمناسبة مرور ١٧٥ سنة على تأسيسها.

ڤيكونت اتيين داڤينيون

رئيس المؤسسة البلجيكية العامة

الكتابة هي الأداة المدهشة التي تمكننا الآن من معرفة الماضي والتي تُظهر للحاضر شخصيته العابرة، وبالرغم من الإختلافات بين الحضارات والثقافات الناتجة عن التباين في الأزمنة والأماكن، تستطيع الكتابة أن تكون الفرصة الوحيدة القادرة على إبانة وإدراك التفاهم بين هذه الحضارات المختلفة في زمنٍ من المفترض أن تسوده «الشمولية»، حيث يدرك الجميع وبسهولة مدلولات هذا الرهان.

وبما أن الإنسان يملك عطية الفكر فقد شاء أن يجد الأداة التي تضمن الإستمرار لتجاربه الوقتية والتواصل لرسالته. والآن، إن كان باستطاعتنا إدراك وفهم أصول الكتابة، فإن ذلك بقي غامضاً ولفترات طويلة من الأزمنة. وقد أرادت المؤسسة البلجيكية العامة وبمناسبة الإحتفال بمرور ١٧٥ سنة على تأسيسها أن تسهم بالإجابة الدقيقة عن أصول هذه الكتابة.

تقوم مؤسستنا منذ عام ١٩٩٠ بتقديم الدعم للآثاريين في جامعة بروكسل الحرة وجامعة لوڤين الكاثوليكية، العضو المؤسس للمركز الأوروبي لدراسة المناطق الرافدية العليا (ECUMS)، الذي كرّس نشاطه وأبحاثه في موقع تل بيدر الواقع في الشمال الشرقي من سورية.

وقد قدمت السلطات السورية موافقتها للمبادرة التي اتخذناها، وأعبر هنا عن امتناني للأستاذ الدكتور سلطان محيسن، كذلك فإني أخص بالشكر الجزيل السفير جوتارد الذي قام بتقديم المساعدة والإرشاد.

عندما نبلغ من العمر ١٧٥ سنة، فمن الطبيعي ألا نتوقع الحصول على منفعة، ومن الأجدر أن نقدم للآخرين ولأكبر عددٍ منهم مشاركة ناجعة وجذابة، آمل أن تحظى بإعجابكم.

المجالات الجديدة للتعاون السوري - الأوربي

س. محيسن

كان لسورية دائماً علاقات خاصة، ومنوعة، مع أوربة. ومع ظهور المجموعة الأوربية حصلت انطلاقة هامة في مجالات التعاون السوري ـ الأوربي التي شملت مختلف أوجه الأنشطة الأثرية والتراثية. فقد تزايد عدد البعثات الأثرية السورية ـ الأوربية المشتركة، ولم يعد عملها مقتصراً على أعمال الكشف والدراسة، وإنما شملت القيام بأعمال صيانة وحفظ وترميم الأوابد والمكتشفات الأثرية والمساهمة في تدريب الكوادر السورية المختصة. أفضل مثال على ذلك هو نشاط البعثة السورية ـ الأوربية المشتركة في تل بيدر. وهناك برامج هامة أخرى في مجال تجديد المتاحف السورية، وبخاصة متحفي دمشق وتدمر، وتحسين وسائل العرض والتخزين فيها، كما نعمل معاً على اعداد بعض المواقع الاثرية السورية الهامة، لوضعها في الخدمة السياحة الثقافية ،وإنشاء مدرسة للترميم في سورية لتدريب الكوادر المحلية المختصة في الصيانة والترميم. وهناك مشاريع للتعاون في اطار المعارض الاثرية وادخال التقنيات الحديثة في مختلف أنشطة المديرية العامة للآثار، ناهيك عن برامج تعاون أخرى تطال المكتبات والموسيقا والفولكلور وغير ذلك.

ونحن ننظر لهذا التعاون بكل سعادة وتفاؤل، ونرى فيه تشجيعاً للحوار والتعارف بين العرب والأوربيين الذين تجمعهم روابط تاريخية وجغرافية وغيرها.

الفهرس

المقدمات

أصول وتطور الكتابة في الشرق الأوسط

جغرافية سورية

ع. عبد السلام

تقع سورية شرق البحر المتوسط على عروض فوق مدارية، وتتمتع بمقومات جغرافية طبيعية متميزة أهلتها لتكون موطناً لحضارات متطورة وإعمار نام.

تندس الصفيحة البنائية العربية تحت الأرض السورية المغطاة بصخور رسوبية تؤلف تضاريس البلاد، التي ضربها الانهدام السوري الإفريقي مشكلاً سلاسل جبال بلاد الشام في الغرب، منتظمة في سلسلتين تشمخ قممهما في سورية حتى ٢٨١٤م في جبل الشيخ. وتمتد هضاب الداخل إلى الشرق من الجبال على علو ٥٠٠ ـ ٧٠٠م، حيث تتبعثر على سطحها منخفضات مغلقة، ويفصلها إقليم الوسط السوري (الجبال الوسطى والجبال التدمرية) إلى بادية الشامية الشمالية (الرصافة) والبادية الشامية الجنوبية (الحماد والفيضات). أما يسار نهر الفرات فتمتد فيافي وسهول الجزيرة على ارتفاع متوسط قدره ٣٠٠م التي يندر أن يظهر على سطحها عوائق تضريسية مهمة.

تقسم سورية إلى غرب رطب وشبه رطب وشرق داخلي شبه جاف وجاف وتنضوي نباتاتها وتربها تحت ثلاث زمر هي:

ـ نبات الغابة وتربها حيث الأمطار السنوية أعلى من ٥٠٠ملم .

ـ زمرة الشجيرات والأعشاب، وتنتشر شرق نطاق الغابة حيث لاتسمح كميات الأمطار بنمو الأشجار.

ـ نباتات وترب الصحراء وتغطي مساحة محدودة من أقصى الجنوب الشرقي.

هذا وتنتشر في سهوب وأشباه صحراء سورية أحواض منخفضة تشغلها واحات تمارس فيها زراعات كثيفة. أو تتألف من الخباري.

إن البيئة الطبيعية في سورية قد تغيرت نتيجة النشاط الزراعي الحديث. وعلى الرغم من ضيق مساحة البقاع الرطبة والخصبة التربة في سورية، فإنها كانت مواطن الزراعات المستقرة والتجمعات السكانية الحضرية والريفية، التي توسع مدى انتشارها إلى السهوب وشبه الصحراء نتيجة دخول الآلة (مضخات المياه) وتحسن الطرق ووسائط النقل إليها منذ خمسة عقود مضت.

سورية في العصر الحجري القديم

س. محيسن

تعود المعلومات الأولى عن العصر الحجري القديم في سورية الى بداية هذا القرن، ثم بدأت التنقيبات النظامية في الثلاثينات منه، وتطورت في السنوات اللاحقة. ويوجد حالياً ثلاثة مواقع قيد التنقيب هي: الندوية، وأم التلال في حوضة الكوم ومغارة الديدرية في منطقة عفرين.

العصر الحجري القديم الأدنى: (١٠٠٠،٠٠٠ ـ ١٥٠،٠٠٠) سنة خلت:

يعتقد أن إنسان سورية الأول، وهو من نوع الهومو- اركتوس، قدم من القارة الافريقية سالكاً خط الساحل المتوسطي والانهدام السوري ـ الافريقي. وقد وجدت آثاره في حوض النهر الكبير الشمالي وحوض العاصي، وهي تعود الى حوالي مليون سنة خلت. ومنذ حوالي /٧٠٠٠٠٠/ سنة، اتسع نطاق الاستيطان وازداد عدد المواقع وسُكنت مناطق جديدة في البادية السورية، ومن أهم المواقع اللطامنة في حوض العاصي والميرة في البادية. ومنذحوالي /٥٠٠٠٠٠/ سنة انتشر الاستيطان في كل سورية، ومن أهم مواقع هذه المرحلة القرماشي في حوض العاصي والندوية في حوضة الكوم. فقد كشف في موقع الندوية عن عدة سويات أثرية ضمت أدوات حجرية وبقايا مستحاثية منوعة أهمها جزء من العظم الجداري لجمجمة إنسان الهومو- اركتوس، وهي الأهم من نوعها في الشرق الأوسط حتى الآن . حصلت في نهاية هذا العصر فترة انتقالية تعاصرت فيها حضارات عديدة منها اليبرودية والاورينياسية والهملية.

العصر الحجري القديم الاوسط والاعلى:

بدأ العصر الحجري القديم الأوسط منذ حوالي ١٥٠ ألف سنة خلت، وانتشر استيطان انسان النياندرتال بكثافة عالية في كل المناطق. ومن أهم المواقع، الديدرية في منطقة وادي عفرين، حيث كشف عن هيكل طفل نياندرتالي، عمره حوالي السنتين وهو الأكمل من نوعه في العالم. وهناك موقع أم التلال بطبقاته الأثرية المتتالية والغنية بمعطيات نباتية وحيوانية وأدوات حجرية، اضافة الى جزء من عظم قزال لجمجمة انسان النياندرتال.

بدأ العصر الحجري القديم الاعلى منذ حوالي ٤٠ ألف سنة، ويلاحظ تراجع نسبي في الاستيطان لا نعلم، حتى الآن، اسبابه الحقيقية. ولكن مع انتهاء العصر الحجري القديم أي منذ حوالي ١٤ ألف سنة، عادت سورية من جديد مركز وجود بشري ونشاط حضاري مستمر عبر العصور اللاحقة.

من ثورة العصر الحجري الحديث إلى الثورة العمرانية

ج. كوڤان
تعريب: ي. الكجك

شاركت سورية مع مجموعة بلدان المشرق في حوالي الألف التاسع قبل الميلاد في إكتشاف الزراعة، التي توجهت بداية نحو القمح النشائي في حوضة دمشق، ونحو القمح ذو الحبيبات والشليم والشعير في الفرات الأوسط. لم يكن هذا الإكتشاف نتيجة لحاجات غذائية جديدة، بل نتيجة طريقة أكثر فعالية في إدراك وفي استثمار المحيط الطبيعي، ولها علاقة بالتغيرات الفكرية المشهودة من خلال الفن مثل (عبادة الربة).

ومن جهة أخرى فإن الفرات الأوسط والجزيرة كانتا مهد الحضارة النيوليتية الثانية ما قبل الفخار (PPNB) في الشرق الأوسط، والتي أبدعت المسكن الدائري، وشيئاً فشيئاً تمت السيطرة على أنواع حيوانية (الماعز، الغنم، ثم البقر والخنزير). وبدأ في حوالي ٧٠٠٠ق.م الرعي البدوي، وهو الذي نقل النيوليتية بشكل تدريجي لمناطق مجاورة (الأناضول، مناطق الجنوب الشرقي، واحات الصحراء...إلخ)، وهنا أيضاً حدث تحوّل ذو طابع فكري ورمزي أشاع ميلاً للذكورية في العبادة: مثل عبادة الثور، (المشاهد الأولى ذات الطابع المذكر) والميل للأسلحة.

يبدو أن حضارة (PPNB) قد لعبت دوراً هاماً في إبتكار الفخار فيما بعد في فترات حلف والعبيد، وفي هذه الفترة إرتبطت سورية الشمالية بمناطق الإبداع الثقافي الأكثر إتساعاً والتي إنتقل مركزها شيئاً فشيئاً باتجاه أواسط المشرق، وجنوب بلاد الرافدين.

ظهور الكتابة في الشرق الأدنى

ر. ماثيوس
تعريب: إ. سنديان

أعالج في هذا البحث، الوثائق المتعلقة بأصول وبداية تطور الكتابة في ثلاثة مناطق من الشرق الأدنى القديم: وهي بلاد مابين النهرين وإيران ومصر ـ قبل أن أختم ببعض الملاحظات العامة.

تطورت الكتابة ماقبل المسمارية في بلاد مابين النهرين، خلال القرون الأخيرة من الألف الرابع ق.م، ضمن سياق إجتماعي تميز بالتعقيد المتزايد، لأنه تزامن مع إنتشار حضارة الوركاء (أوروك) الحديثة خارج حدود بلاد مابين النهرين الجنوبية، باتجاه سورية وتركيا وإيران.

يدل هذا الانتشار بشكل رئيسي - على نمو كبير في العلاقات الإقتصادية في مجال التجارة والتبادل، ومما لاشك فيه أن هذا التطور التدريجي تضمن عناصر سياسية ودينية هامة، كما تشير إليها النقوش وطبيعة النصوص نفسها.

ويبدو أن الكتابة ما قبل المسمارية كانت قد تطورت في فترةٍ ما من المراحل التي لم يسجل تتابعها بطريقة مؤكدة ولا في أي دراسة للطبقات الجيولوجية في أي موقع فردي. وتعتبر مواقع الوركاء (أوروك) وسوزا وحبوبة الكبيرة وجبل عارودا من أهم المواقع لدراسة تطور الكتابة في بلاد مابين النهرين القديمة. ولايزال الشك قائماً بخصوص مدلولات اللويحات الدائرية العائدة لعصر ماقبل التاريخ، ويرجح أن يكون لبعضها صلة بأصول الكتابة، حيث أنها كانت توضع ضمن غلاف من الصلصال يحمل طبعة ختم، وهناك فترة هامة أخرى تتمثل في مهر إشارات على الوجه الخارجي للمغلف الصلصالي تدل على محتواه. إفتقد هذا التطور خطوة واحدة حتى تم الإستغناء عن استعمال هذه اللويحات والتحول إلى إشارات مطبوعة أو محززة حصراً على رُقم صلصالية. وعندما تبلورت هذه الطريقة بلغت ذروتها حيث تمّ إحصاء ١٢٠٠ إشارة للكتابة ماقبل المسمارية منذ ظهورها لأول مرة.

ظهرت الكتابة ماقبل العيلامية في عدة مواقع إيرانية، وخصوصاً في وماليان تيبه ـ محيا قبل نحو ٣٠٠٠ عام من عصرنا الحالي. وبالرغم من علاقتها التركيبية مع الكتابة ما قبل المسمارية في بلاد مابين النهرين، فإن هذه الكتابة استخدمت رموزاً مختلفة تماماً كما إرتبطت بمجموعة ثقافية جديدة ذات طابع أكثر مشرقية.

ومما ساعد على ظهور الكتابة العيلامية التأثيرات الثقافية لحضارة الوركاء (أوروك) الحديثة من الفترة السابقة، ومع أن الأمر يتعلق ـ بشكل رئيسي ـ بتطور إيراني محلي استمر بضعة قرون.

اكتشفت أقدم كتابة مصرية في صعيد مصر في مدفن U-Jd صAbydos الذي يعود لـ ٣١٥٠ عاماً ق.م، وكانت على شكل نقوش على قطع عظمية أو عاجية وعلى طبعات أختام مكتوبة على أغطية الجرار، وإشارات مرسومة بالحبر على الأواني الفخارية. وأشارت هذه الكتابات إلى موقعي بوتو وتل الغارا في دلتا النيل، وهذا أمر هام، حيث كشفت التنقيبات في بوتو عن شواهد تدل على علاقات مع بلاد مابين النهرين - حضارة الوركاء (أوروك) الحديثة. إذاً يبدو من المرجح أن فكرة الكتابة عرفت طريقها إلى المجتمع المصري في مرحلة ماقبل السلالات عن طريق تجارة الخمر مع بلاد مابين النهرين وحضارة الوركاء (أوروك) الحديثة، كذلك عن طريق فلسطين.

وفي الختام، يبدو أن كافة المحاولات الكتابية الأولى كان قاسمها المشترك غياب العناصر القواعدية، مما يدل على أن أصلها يعود للسانيات متعددة.

ابتكار الكتابة المسمارية: فك الرقم القديمة من الوركاء

هـ. نيسن
تعريب: ي. الكجك

١ ـ النصوص

١ ـ ١ ـ تاريخ الكشف

تم الحصول على النصوص عن طريق شراء مجموعة من الرقم الطينية، مظهر قديم في بداية هذا القرن. لكن الغالبية العظمى، تم الحصول عليها عن طريق الحفريات، التي كشفت عن رقم تحمل كتابات أوروكية قديمة من عصر جمده نصر، وأور. وذلك في منتصف الثلاثينات، مما وضع في أيدينا مادة كافية لتتبع التطور العام لأول الكتابات.

ومنذ اللحظة التي بدأ فيها (ي. فالكنسين) بدراسة النصوص القديمة للمواسم الثلاث الأولى في اوروك، ونشرها عام ١٩٣٦، لم يقدم فقط تحليلاً نقدياً للنصوص الاوروكية القديمة، والتي لا نملك الكثير من الخيارات لاضافتها اليوم، إلا أنه قدّم ترتيباً زمنياً لازال صالحاً بالنسبة لمجموعات النصوص المعروفة حتى اليوم. إن أقدم مجموعات النصوص الاوروكية (أوروك IV) عرضت أقدم الكتابات، وتبعتها مجموعة أعطت كتابات لها نفس سمات نصوص جمده نصر (أوروك III، جمدة نصر، رقم مشتراه). تبعتها رقم أور «القديمة»، والتي من المعلوم بأنها أحدث. ثم بعد فجوة زمنية مؤقتة تظهر نصوص فاره التي سبقت نصوص تبلو بقليل.

بعد ذلك الوقت، اضيفت مجموعة من الرقم والكسرات من اوروك إلى المجموعة، فأصبحت تضم حوالي ٥٥٠٠ رقيم وكسرة للفترات الزمنية التي تفصل ما بين نهاية عصر اوروك والسلالات القديمة I، وزمن نصوص اور، أو للفترات ما بين ٣٣٠٠ـ٢٩٠٠ ق.م.

كل الرقم بلا استثناء التي عثر عليها في سويات الردميات والتي تتوضع بين الطبقات يوضح تتابعها الزمني؛ ومع ذلك فإن هذا الوضع قد أوجد مشكلات بالنسبة لتأريخ الرقم الأقدم، لأنها كشفت في سوية ولا يمكن تأريخها إلا بأقدم من سوية السكنى القديمة (IIIC). وبذلك فإن الوثائق الأقدم المكتوبة يجب أن تؤرخ في أواخر عصر اوروك الحديث. دون أن نتمكن من اعطاء تحديد أدق.

١ ـ ٢ ـ القراءة (فك الرموز)

إن مقارنة هذه الرقم القديمة، مع نصوص فاره. التي نشرت سابقاً. يوضح بأن البصمات الدائرية أو الممتدة، التي توضع في بداية الخانات، كانت عبارة عن مؤشرات رقمية، وبأن عدداً كبيراً ومتنوعاً من النصوص، يتعلق بالإدارة الاقتصادية. إن النصوص التي كانت كل خانة منها قد ادخلت فيها الاشارة (١)، يوجد ما يماثلها في نهج القوائم المعجمية، أو «النصوص المدرسية»، الموجودة في فاره. توصل فلاكنستيه في بداية الثلاثينات وانطلاقاً من (٦٢٠) رقيماً من اوروك، الى نتائج تتوافق بخطوطها العريضة، مع ما نحن بصدد شرحه هنا. فنحن لا ندين له فقط بالتقسيم الباليوغرافي، وتأريخ مجموعات النصوص، ولكن أيضاً بما نعرفه من طرائق الكتابة، وتبدلاتها. من خلال جرد الإشارات وتغيراتها. وكذلك محتويات النصوص.

منذ عام ١٩٦٥ ونحن نعمل في برلين على طبع وتحضير كل نصوص اوروك القديمة. وقد حصل تقدم كبير منذ عام ١٩٨٢، حيث انضم إلى فريق العمل روبريت ك. انكلاندر د.بيتر داميرو من برلين. وقد صدر المجلد الأول منها، ويتعلق بتطابق مختلف أنظمة الاشارات الرقمية، ونشر قائمة اشارات وقائمة معجمية. أما المجلدات اللاحقة فهي في طور التحضير. وخلال ذلك، فإن كل المعطيات تحفظ في بنك المعلومات في برلين، يتم توزيعها على أقراص مدمجة CD. وقريباً على الانترنيت.

١ ـ ٣ ـ المحتوى:

كل المصادر هي نصوص ادارية، أو معجمية. فنحن لا نعرف أي

نص ذو محتوى أدبي أو ثقافي، أو تاريخي. وهذا حتماً ليس بطريق المصادفة، ولكنه يتعلق بشكل واضح بعدم وجود ضرورة لنقل تقاليد لغوية شفهية إلى مكتوبة. كانت حتماً غنية وخصبة.
تتعلق النصوص الادارية بالارساليات إلى مخزن مركزي، أو بتوزيع المنتجات الزراعية من كل نوع. إذاً هي ذات مدلولات غذائية بشكل عام، مواد أولية أخرى. وإدارة قطعان من الماشية والأيدي العاملة. في بعض الحالات النادرة، يمكننا التكهن بأن المتلقي موظف كبير، فالذي يتلقى هذه الكمية من الشعير لا يمكن أن تكون لاستعماله الشخصي، وانما لتوزيعها على مرؤوسيه. حسابات الصادر لفترات طويلة، كانت تنشأ انطلاقاً من المخرجات اليومية وهي على الأرجح لا تستخدم فقط لمراقبة الوضع، وإنما لمعرفة الكميات التي يجب حفظها من الشعير للتمكن من تحضير البذار الضروري للموسم القادم.
إن هذه الدقة الكبيرة في تعدد المستويات في النصوص القديمة يجعلنا نعتقد بوجود بنى إدارية ونظام توزيع، ما كانت أقل تعقيداً قبل اختراع الكتابة. وبمساعدتهما تم انتقاله في المستوى المتوسط، ثم غدا أكثر نضجاً.
الـ ٦٥٠ نصاً معجمياً، هي منسوخات لـ ١٤ قائمة مختلفة، التي نعرف لها منقولات أحدث. وقوائم لمفاهيم دلالات، إنها عبارة عن مفاهيم مترابطة بصلات دلالية تضم أسماء وتسميات مختلف أنواع الحيوانات كالأبقار، والطيور، والأسماك أو الخنازير، وكذلك الأخشاب والمواعين الخشبية، الأقمشة، والأدوات المعدنية، وأوان ذات محتويات مختلفة، وأسماء مدن. هذه المنسوخات التي لم تحدث عليها اضافات خلال ٨٠٠ سنة، توحي بأنها قد كان لها دور هام في نقل الكتابة. فهي قد اعتبرت كمحاولة باكورية للتصنيف، وكمحاولة لجعل العالم مراقباً عن طريق تسمية المفاهيم وإحصائها.
نحن نركز بشكل خاص على القائمة المسماة (أسماء المهن) التي تحوي ألقاب وأسماء المهن السائدة، حسب النظام الطبقي. نحن لا نعرف متى تم دخول هذه المشتقات السومرية، لكننا نجدها في معجم الألف الثاني عشر، مع ترجمة (Sharru) التعبير المتعارف عليه في ذلك العصر للاشارة إلى الملك. وبهذا فإن هذا اللقب والسطور اللاحقة، تحوي ما يشير على الأرجح إلى شيء من نوع «حاكم»، ثم نجدها مرتبطة بمفاهيم «حق»، «مدينة»، d4 «شعير»، «محراث»، و«يد عاملة»، إن المظهر العام هو لقائمة من الحكام المحلين وتسمية ألقابهم. والترجمة الحديثة لهذه القائمة تتعلق بمعرفة الدخول الأول لهذه المسميات إلى السلطة العليا.

٢ ـ النص الكامل

٢ ـ ١ ـ المحيط الأثري ـ التاريخي

عثر على أقدم الرقم في انقاض ايانا، المنطقة المركزية المحاطة بجدار مدينة اوروك، وتؤرخ بنهاية الفترة المسماة اوروك، مع آثار فنية لأوابد معمارية وأعمال فنية من نوعية غير معروفة سابقاً، وتشهد الاختام الأسطوانية التي عثر عليها على وجود حضارة مدنية سابقة لتلك الفترة.
تظهر الكتابة منذ النصوص الأقدم كنظام مبني بشكل متكامل، وذلك بغض النظر عن بعض القراءات أن معظم أشكال الاشارات، وبشكل خاص في الاتفاقات من كل نوع، هي مثبتة. مع ذلك، فان هذه الظاهرة لا تفسر الفكرة التي كانت معروفة عن المستندات المكتوبة الأقدم المفقودة. ويمكن تفسير ظاهرة الكتابة بالبحث عن طرائق جديدة لحفظ المعلومات، وذلك بافتراض أن الكتابة تمثل الوسيلة الأكثر كمالاً وذكاءً، لجمع القدر الأكبر من المعلومات. فالكتابة نظام بقمة الكمال، تسمح بتسجيل كل ما نرغب، وهي ليست البداية: فالاختام والسدادات، هي الوسائل الأقدم والأبسط، وتشكل البدايات الأولى لتخزين المعلومات. فبينما تدل طبعات الاختام على أهمية الرابط ما بين الاداة المختومة والشخص الذي صممها، تمثل عمليات الإضافة والطرح المكتوبة على السدادة عدداً أو كميةً يمكن التوصل اليها بالحساب.
منذ العصر النيوليتي، استخدمت هاتان الطريقتان في حفظ المعلومات، وثبتت لآلاف السنين، حتى عصر اوروك، حيث لاحظنا تنامياً في القدرة على حفظ المعلومات، حيث تم العثور على كرات من الطين صنعت بشكل تستطيع معه تلقي عدد معين من السدادات، التي زوّدت سطوحها بطبعات، أما العدد فقد حفظ داخل الكرة وحُمي من جهة بالغلاف الطيني، ومن جهة أخرى بالختم الذي وضع في الخارج لضمان الحماية، وبذلك فإن نوعين من المعلومات ممكن حفظها بمساعدة نفس الوسيلة، وهذا ما يحدث عندما يكون رقيماً طينياً مسطحاً مغطى بالأرقام، ثم يمهر بعد ذلك بختم. إذا نظرنا من هذه الزاوية، فإن الكتابة لم تكن

إلا نهاية لسلسلة طويلة من المحاولات الهادفة لتوسيع المعلومات المخزونة.

يمر فهم هذه التغيرات عبر بحث استخدامات اللغة بأشكالها الأقدم لحفظ المعلومات. فقد ساهمت الكتابة بشكل واضح في توسيع وانضاج نظام موجود سابقاً، يسمح بمراقبة الكميات الداخلة والخارجة من الممتلكات الهامة، من وجهة نظر كمية أو نوعية. إن المسيرة التي قادت السدادات والأختام القديمة إلى الكتابة، ترينا صلتها الفريدة مع نظام الادارة الاقتصادية، إذاً كانت مرهونة بتغيرات هذا النظام.

نلاحظ فجأة في منتصف الألف الرابع، بعد مرحلة طويلة من الاستيطان المتفرق في الفترة البابلية، تكثفاً سكنياً جديداً، وتنوعاً في مساحات المواقع التي أدت لبناء منشأت لم تكن معروفة سابقاً. فنحن نسجل منذ ذلك التاريخ تحولاً إدارياً في النظام الاقتصادي. لأن مدينة كأوروك يبلغ تعداد سكانها ٢٥،٠٠٠ و٥٠،٠٠٠، في حوالي ٣٣٠٠ ق.م. لم تكن قادرة على تحقيق أكتفائها الذاتي.

٢ ـ ٢ ـ اللغة

بما أن الهدف الوحيد للكتابة الأولى، كان تسجيل جذور الكلمات بهدف إجراء رقابة لاحقة للمعاملات، فلم يكن هناك ضرورة لكتابة كل ما يقال. فالملاحظات يمكن أن تقرأ بأية لغة مع الأخذ بعين الاعتبار شروط التأويل الشفهية. ولم نعثر على معالم للغة إلا حيث كانت الإشارات المستخدمة مع قيمة صوتية، وحيث الشكل والمعنى يمكن أن يشير الى لغة محددة. من الأمثلة النادرة يمكننا أن نفترض بأن السومرية كانت اللغة الخطية لهذه النصوص، وذلك بالرغم من أن اللغة السومرية الأحدث، كانت تحوي على سلسلة من المفردات ذات أصل غير سومري. إذاً نستطيع افتراض وجود خليطة أعراق. بعضها قد استقر في البلاد منذ فترة طويلة، بينما المجموع الأكبر، والذي يشكل السومريون جزءاً منه لم يصلوا إلى هذه المنطقة قبل الألف الرابع ق.م. وبعضهم مسؤول عن الاستيطان الواسع الذي كنا بصدد ذكره.

٣ ـ ايضاح النظام.

٣ ـ ١ ـ تقنية الكتابة:

حاملة النص معروفة منذ فترة طويلة، وتتكوّن من الطين غير المثبت المستوى كقطع مسطحة. تُطبع على سطحها الإشارات أو تحفر، بواسطة مخرز من الخشب أو القصب.

في البداية كان يستخدم على الأقل مخرزان، أحدهما مخصص لكتابة الأرقام له من جهة رأس مثلم، ومن الجانب الآخر دائري، ينتج عن الاستخدام المائل له على الطين انخفاضاً ممتداً يمثل في العادة رقم (١)، وينجم عن الاستخدام العمودي له على سطح الرقيم انخفاضاً دائرياً، يستخدم للرقم (١٠). أما الجهة الأخرى للمخرز فهي بشكل دائري، قطره كبير يستخدم لكتابة الأرقام الأعلى.

المخرز المخصص للكتابة، كان في البداية، يُرفع رأسه ليخط الإشارات المفردة، ثم بعد ذلك بقليل يعدّل الرأس بشكل يمكن معه إحداث أشكال زاوية، وبدلاً من استخدام اداة للرسم، يستعمل في نفس الوقت الرأس بشكل مائل. وبهذه العملية فإن الخطوط المنحنية تتحلل إلى أجزاء قصيرة، وكل الخطوط التي فوق ذلك، تخصص برأس عريض، مما يعطيها مظهراً مسمارياً، من هنا أتت تسمية الكتابة بـ «المسمارية».

٣ ـ ٢ ـ إنجاز الإشارات:

في اللحظة التي أدى فيها الضغط الاجتماعي لإيجاد فكرة الكتابة، بُدء بالتماس أشكال ملائمة للإشارات، وبُدء على الأرجح بأشكال مجردة ألحقت بعد ذلك بأشكال الأشياء بشكل مجرد، ثم أُضيفت إليها إشارات مقتبسة من الطبيعة في حالات خاصة.

٤ ـ اختراع أم صناعة:

بالرغم من أن الكتابة كانت اختراعاً مباغتاً، قام بها شخص متميز. فهي لم تكن إلا حلقة أخيرة في سلسلة ألف عام من المحاولات الإنسانية لاختراع نظام يقوي الذاكرة، ويسمح بمساندة ذاكرة ضعيفة أحياناً. إن التطورات المتنوعة لاشكال التنظيمات الجديدة والمعقدة، ولدّت الامتداد الواسع لتدفق المعلومات التي ينبغي التحكم بها بنفس الوقت. إن حدوث توسيع في تنظيم المعطيات لم يكن ممكناً، إلا في مجال التخزين الخارجي للمعلومات. كانت منطقة بلاد الرافدين القديم، بشكل خاص، المكان الأفضل للتطورات، ولتحول الكتابة إلى وثيقة أنشعت أكثر من سواها التطور الفكري للإنسانية.

إن التأثير الذي أحدثه وضع هذا النظام، سيدفع مع الزمن، وبالقياس مع التحديات المستمرة، إلى الوصول لحلول تنظيمية جديدة، وفي نفس الوقت، كانت الكتابة تخضع لمتطلبات الاقتباس المتجددة دوماً.

تطور الكتابة المسمارية: نظام عمل الكتابة السومرية

د. أتو. إدزار

تعريب: م. المقدسي

لقد كان إختراع الكتابة في الجنوب الرافدي مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد بداية لمرحلة تطورت فيها هذه الكتابة حتى أصبحت وسيلة عملية تسمح بنقل كل مايقال وقراءته دون أي غموض.

وقد قُدِّمت الأسماء والأفعال بصيغٍ بسيطةٍ تم التعبير عنها برمزٍ واحد، وعلى سبيل المثال (GUD) التي تعني الثور، أو (GU7) التي تعني تناول الطعام كان لايمكن التميز بين المعنيين إلا من خلال التبلور الكامل للغة المحكية، وهذا يعني الشكل الذي تقدمه كل المقاطع الإضافية الضرورية.

وأدت ضرورة كتابة أسماء العلم (أسماء الأشخاص، الآلهة والأماكن) بشكل واضح ومفهوم والتي كان لهما أهمية بالنسبة للنصوص الإدارية، إلى إضافة قيم صوتية جديدة، وهذا يعني إستعمال رموز ليس لها علاقة مباشرة مع الإسم لكنها تشير إليه بشكلٍ صوتي.

وعلى سبيل المثال، عندما نريد التعبير عن مفهوم «المعيشة ــ الحياة» في جملة إسمية كالتالي: «الإله إنليل يُحي» فإننا نكتب صيغة محرفة لرمز «السهم» وذلك للتشابه الصوتي بين العلامتين (til) التي تعني، المعيشة ــ الحياة» و (ti) التي تعني «السهم»، وبنفس الطريقة بالنسبة للفعل «العودة ــ الرجوع» الذي يرمز له بـ (ge4) والذي يكتب بشكل مختلف قليلاً من رمز (gi) الذي يدل على مادة «القصب».

سوف نحاول بشكل مختصر إعطاء المميزات العامة للغة السومرية التي استعملت في التعبير عنها الكتابة الأقدم في منطقة الرافدين: فالأسماء والأفعال السومرية لهما جذور وللتعبير عنهما بشكل صحيح كان لا بد من إضافة عدد من المقاطع في بداية ونهاية هذه الجذور اللغوية، وعلى سبيل المثال فإن (lugal) تعني «الملك» (Lugal-ene) تعني «الملوك» و (Lugal-ene-r(a)) تعني «للملوك» وكذلك بالنسبة لفعل «أعطى» الذي يكتب بشكل (SÚm) و (nu-mu-e-ra (a) b-SÚm-mu-un) التي تعني «لن أعطيك أبداً».

لابد من الإشارة إلى أن اللغة السومرية مختلفة بشكل spbي عن اللغات السامية والهندو ــ أوربية والتركية، ومن الناحية التصنيفية يمكن مقارنتها مع اللغة الجيورجية ولغة سكان منطقة الباسك الحالية.

لم نتمكن من فهم النصوص السومرية بشكل جيد إلا عندما كتبت المقاطع التي تلفظ بشكل كامل وهذا معاصر لحكم ملك لاغاش أياناتوم صاحب النص المشهور المدون في «نصب العقبان» والمؤرخ حوالي ٢٤٧٠ قبل الميلاد.

اعتاد السومريون إعتباراً من القرن ٢٥ قبل الميلاد على كتابة المعاني الأساسية وأسماء العلم التي كانت تنسب إلى خصائص عامة، لكنها مرفقة بشكل عام بإشارات لتحديد معناها. هذه الإشارات تضاف أمام أو خلف المفهوم العام المشار إليه: فالأدوات التي كانت تصنع من الخشب كان يضاف إليها الإسم المعرف (GIS) الذي يعني الـ «الخشب» وكذلك بالنسبة للأدوات المصنّعة من القصب كان يضاف إليها (GI) الذي يعني الـ «القصب»، واسم طير محدد كان يضاف إليه (MUSEN) الذي يعني الـ «الطير»، واسم مدينة محددة كان يضاف إليهما (KI) الذي يعني الـ «مكان» إلخ ...

إن استعمال أدوات التعريف كانت في البداية طريقة عملية للتعبير عن الأسماء ونحن نرى أن استعمال هذه الأدوات هو نتيجة جهدٍ كبير قام به الكتبة لتنظيم العالم المعروف. وبدى هذا بشكل واضح في الشواهد الأدبية ــ المعجمية التي بدأت تظهر بعد إختراع الكتابة في بلاد الرافدين مع نهاية الألف الرابع أو بداية الألف الثالث قبل الميلاد، والتي تناقلتها مدارس الكتبة وحتى فترات زمنية متأخرة.

الباليوغرافيا: عرفت اللغة تطوراً ملحوظاً خلال الفترة الممتدة بين بداية الألف الثالث قبل الميلاد وحكم الملك البابلي سامسوالونا (١٧١٢-١٧٤٦ق.م). وللتعبير عن هذا التطور بشكل مختصر يمكننا أن نقول إن الكتابة إنتقلت من التصويرية إلى التعبيرية من الخطوط المنحنية إلى الخطوط المستقيمة ومن الخط المحزز إلى الإشارات المطبوعة التي لها رأس على شكل «مسمار»، وهذا كله يعني بكل بساطة الإنتقال إلى الكتابة المسمارية، فالكاتب عندما كان يطبع بمخصفِهِ على الغضار كان يترك على رأس الإشارة علامة عميقة مثلثية مما ينتج عن ذلك شكل مسمار.

اعتبر كتبة العصر الآكادي (القرن ٢٥ والقرن ٢٤ قبل الميلاد) أن الشكل «المسماري» هو النموذج الكتابي الأمثل، وبذلك كانوا ينقشون الخطوط التي تحمل رؤوس مثلثية الشكل حتى في الكتابات المنفذة على الأحجار النفيسة.

بالمقابل عندما كان يقوم الكاتب بكتابة علاماته كان يتبع قواعد دقيقة للترتيب الذي كانت تتوضع فيه الخطوط والمسامير بشكل إفرادي لتشكل في نهاية المطاف المقطع الكامل. في حقيقة الأمر لم يكن أمام الكاتب حرية كبيرة لتنفيذ هذه المقاطع والطريقة المتبعة في الكتابة السومرية يمكن مقاربتها مع نظام الكتابة الموجود حالياً في بعض دول الشرق الأقصى (الكتابة الصينية والكتابة اليابانية والكتابة الكورية)، حيث يكون نظام تتالي الخطوط محدد، لابل معين بشكل دقيق، أما عند توضع مسمارين فوق بعضهما فيمكننا عند معاينة النص الأصلي معرفة إذا ماكان المسمار «آ» يقع تحت المسمار «ب» أو بالعكس مما سيساعدنا على تتبع تسلسل الإشارات وبالتالي الوصول إلى الطريقة التي طبعت فيها «المسامير».

وباختصار يمكننا أن نقول أن الكتابة السومرية قد تطورت على شكل نظام يسمح بتسجيل أعقد العمليات الإقتصادية والخوض في المسائل القضائية والبحث في معضلات الفكر المعقدة، وما وصلنا من الأدب السومري العائد إلى بدايات الألف الثاني قبل الميلاد من قصائد مقدمة للآله إنانا أو البطل جلجامش بالإضافة إلى البحث عن أطلال مدينة أور وأشياء أخرى سمح لهذا الأدب من الدخول في منظومة الأدب العالمي.

استخدام الكتابة المسمارية في اللغة الآكادية

ب. ميكالوفسكي
تعريب: م. المقدسي

استعملت الكتابة المسمارية خلال ٣٣٠٠ سنة (وذلك اعتباراً من ٣٢٠٠ قبل الميلاد)، وقد أدى تطورها خلال هذه السنين إلى جعلها مرنة وسهلة الاقتباس بالنسبة لمختلف اللغات ومنها الأكادية. في حقيقة الأمر، تنتمي اللغة الأكادية إلى مجموع اللغات السامية حيث يمكن تصنيفها في نفس المجموعة اللغوية التي تنحدر منها اللغات الآرامية والعربية والفينيقية والعبرية.

وقد اخترعت الكتابة المسمارية، أو بالأحرى بدايات هذه الكتابة، في بلاد ما بين النهرين الجنوبية حوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وربما تحديداً في موقع الوركاء خلال المرحلة الأخيرة من الفترة التي يطلق عليها علماء الآثار فترة الوركاء الحديثة. في الحقيقة، تعتبر هذه الفترة مرحلة فريدة من تاريخ البشرية كانت عبارة عن مرحلة انتقال سريع في المجال اللغوي، حيث يمكننا أن نفترض وجود نسبة عالية من سكان تلك المناطق الذين يتقنون لغتين أو أكثر، مع العلم أنه ليس من الضروري في منطقة جغرافية معينة أن تكون اللغة المكتوبة هي نفسها اللغة المحكية.

ليس بحوزتنا معلومات دقيقة عن تاريخ اندماج اللغة المحلية مع الكتابة، ويعتقد أن هذه العملية قد تمت حوالي عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد عندما بدأت تظهر النصوص الأدبية بأعداد متزايدة. ولم يعد هنا أي شكٍ حول اللغة المستعملة على الرقم الطينية. لكن ما هو ثابت أن بقاء تداول اللغة السومرية قد أخّر استعمال اللغات الأخرى بشكل كامل، وعلينا أن ننتظر بداية الألف الثاني كي تظهر وحدات لغوية متكاملة وهذا يتزامن بطبيعة الحال مع زول استعمال اللغة السومرية كلغة شعبية مع بقاء تداولها في مدارس الكتبة والمعابد.

لابد من الإشارة إلى أن فهم النصوص الأدبية الأولى التي وصلتنا ليس بالأمر الصعب لكن إعادة تكون طبيعة اللغة المستعملة أمر مستحيل نظراً لمحدودية استعمال اللغة في ذلك العصر، فلم تسجل في تلك النصوص إلا بعض المعلومات اللغوية والصوتية وتركت للقارئ مهمة إعادة بناء العناصر المتبقية.

في حقيقة الأمر إن المبادئ الأساسية للكتابة المسمارية بسيطة فهناك ثلاثة أنواع من الإشارات: الإشارات ـ الكلمات التي يمكن أن نسميها بالمقاطع الرمزية، الإشارات المقطعية وإشارات التعريف التي ترشدنا إلى الدلالة اللفظية للكلمة.

والمثال الأوضح لما سبق سيكون في الرسم الذي يعبر عنه بالنجمة (*).

المقطع الرمزي	إشارة مقطعية	إشارة مقطعية
«الإله» (dingir)	(an)	«الإله» (^{d} = dingir)
«السماء» (an)		
«الإله السماء» (An)		

يبدو لنا هذا المثال وللوهلة الأولى في منتهى التعقيد، لكنه في حقيقة الأمر سهل ويخلو من الغموض، ومن خلاله نستطيع أن نفهم كيف وجدت القيم المقطعية والتي لم تكن إلا عبارة عن مقاطع أحادية سومرية أضيفت إليها إشارات التعريف التي لم تكن تلفظ.

أما الاختلاف الأساسي بين اللغتين السومرية والأكادية وأية لغة سامية أخرى فيكمن في بنية جذر الكلمات. ففي اللغة السومرية جذر الكلمة هو عبارة عن مقطع أحادي لا يمكن تحويرة إلا بإضافة أدوات تصدير أو إشارات لاحقة في حين أن الجذر السامي هو عبارة عن كلمة مجردة تتألف في أغلب الأحيان من هيكل مكوّن من ثلاثة أحرف صامتة تضاف عليها حروف العلّة أو حروف صامتة. وذلك بشكل متناوب مع أحرف صوتية، وهكذا فإنه يمكن استعمال الجذر الأكادي (KRB) الذي يعني «البركة ـ

الصلاة» لتشكيل عدد من الكلمات والمعاني: (Karabu) تعني «بارك»، (takrub) وتعني «أنت باركت»، (ikribu) وتعني «الصلاة المباركة». أما طريقة تدوين هذه الكتابة فقد استعمل كتبة الفترة البابلية النظام المقطعي، وهكذا فقد كتب الفعل (takrub) «تُبارِك» بواسطة أربعة مقاطع على النحو التالي:

(ta-ak-ru-ub). وهكذا أصبح باستطاعة الكتبة اعتباراً من منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد كتابة الأكادية وحتى السومرية بشكل مقطعي وذلك بالاستعانة بحوالي ١٥٠ رمزاً.

وقد تبين منذ عدد من السنين أن اللغات السامية بما في ذلك الأكادية قد دونت قبل اختراع النظام المقطعي وهذا ما تؤكده بعض النصوص السابقة لعصر صرغون الأكادي والتي كتبت باستعمال مقاطع رمزية سومرية.

أما خلال العصر الصرغوني فقد أصبحت اللغة الآكادية هي اللغة الأهم وقد تعايشت في الجنوب الرافدي مع اللغة السومرية وكانت اللغة المستعملة في الرسائل والإدارة وأصبحت فيما بعد لغة المنقوشات الملكية والكتابات الهامة.

بالمقابل خلال فترة حكم سلالة آور الثالثة الذي استمر من عام ٢١١٢ وحتى ٢٠٠٤ قبل الميلاد فقد عادت السيطرة للجنوب والوثائق الإدارية والإقتصادية التي وصلتنا دونت بشكل كامل في اللغة السومرية مع وجود بعض النصوص القليلة المدونة باللغة الآكادية وهذا لا يمكن تفسيره إلا عبر الإرادة الكامنة خلال هذه الفترة في جعل الإدارة مركزية وتطبيق عدد من الإجراءات والقيود الحسابية في مناطق أساسية من الدولة.

لا بد من الإشارة إلى أنه قد وصلتنا مجموعة هامة وكبيرة من النصوص العائدة لتلك الفترة المكتشفة في عدد محدود من المواقع والمدن الواقعة في المناطق الجنوبية في بلاد الرافدين، بالمقابل فإن حجم المعطيات المكتشفة في مناطق الشمال ضئيل جداً لكنه يؤكد أنها كانت مستعملة إلى جانب السومرية.

عند سقوط سلالة أور الثالثة في حوالي ٢٠٠٤ قبل الميلاد بدأ الدور الطليعي للكتابة السومرية بالتدهور، وبالرغم من بقائها لعدد من الأجيال فإن الآكادية أصبحت اللغة الأساسية واستعملت بشكل كامل في الإدارة والأعمال والتجارة ونستطيع أن نؤكد أن آخر رسالة حررت في اللغة السومرية تعود بشكل تقريبي إلى عام ١٩٣٠ قبل الميلاد.

تطور مبدأ الكتابة المقطعية في تسجيل اللغات السامية، بشكل يسمح بإجراء تغيرات خلال تاريخ الاستعمال الطويل للكتابة المسمارية لكن هذا لا يعني أن استعمال المقاطع الرمزية الأقدم قد زال بشكل كامل، على العكس تماماً فقد استعملت الطريقتين للوصول إلى نتائج ناجعة.

أما بالنسبة لاستعمال الكتابة المقطعية مع المقاطع الرمزية فقد كان يتباين حسب الحاجة التي يتطلبها النص أو طبيعة المواد المدونة والفترات الزمنية التي حررت فيها. وعلى سبيل المثال كان يتوجب على أحد كتبه مدينة بابل في حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد استعمال حوالي ١٥٠ مقطعاً بالإضافة إلى عدد من المقاطع الرمزية لتحرير رسالة لأحد رجال الأعمال، في حين كان بحاجة لعددٍ أكبر من المقاطع الرمزية لكتابة كشف حساب بسيط. بالمقابل فقد كان يتوجب على علماء وكتبة النصوص الأدبية في الفترة الآشورية (الألف الأول قبل الميلاد) معرفة الكثير من المقاطع والرموز لإتقان وكتابة وقراءة العدد الأكبر من النصوص.

بشكل عام استعملت المقاطع لكتابة النصوص الأدبية الأكادية العائدة إلى الألف الثاني قبل الميلاد، في حين استعملت المقاطع الرمزية في الألف الأول، وهذا ادى إلى ازدياد عدد رموز المقاطع بشكل كبير، وبذلك اختلفت اللغة الأكادية الأدبية عن باقي اللغات السامية وأصبح المواطن العادي يستعمل الآرامية في الشارع والأسواق في حين نشأت نخبة مميزة من الكتّبة تتقن السومرية والآكادية القديمة وتحافظ على التقاليد الأدبية.

الكتابة المسمارية في موقع تل بيدر: روابط ثقافية وتعبيرمحلي

و. سالابيرچيه
تعريب: إ. سنديان

مع إكتشاف ١٦٥ رقيم مسماري في موقع تل بيدر (الحسكة)، حصلنا ولأول مرة على نصوص ماقبل صارغونية من الجزيرة السورية. وهذه اللقى لم تشكل مفاجأة حقاً، إلا أن التنقيبات الأخيرة أظهرت المزيد من الأهمية الثقافية لمنطقة الخابور الأعلى في تلك الفترة. أما ماكان غير متوقع – البتة – فهو ذلك التشابه الواضح بالإشارات والمقاطع اللفظية والكتابية بين نصوص تل بيدر ونصوص جنوب بلاد مابين النهرين العائدة للفترة التاريخية ذاتها. كذلك تكشفت صلة ثقافية وثيقة بين تل بيدر وبلاد مابين النهرين تناقض الإنجازات المحلية والمعاصرة إلى حدٍ ما في موقع إبلا، وتتمثل الخصوصية المحلية للكتابة في موقع تل بيدر، والتي تستخدم لكتابة نصوص قديمة مغايرة بلغة أكادية قديمة، في ثقافة أدبية مبتكرة ماتزال أماكن إنتشارها غير معروفة حتى الآن.

النصوص المسمارية
في ماري خلال عصر السلالات القديمة

د. شاريان

تعريب: إ. سنديان

زوّدنا موقع ماري بنصوص لنموذجين استدلالين من عصر السلالات القديمة: الأول لبعض تماثيل نذرية مكتشفة في المعابد، والثاني لحوالي ٤٠ رقيماً إدارياً، وكلها اكتشفت في خمسة مواقع مختلفة (منها العصر ماقبل الصارغوني P. 1).

ومع أن الرقم كتبت بشكل أساسي بواسطة رموز الكتابة السومرية، إلا أنها تضمنت عدداً ما من العبارات السامية.

ونقع على التقويم المستخدم في النصوص المأخوذة من مجموعة كاملة لمواقع أخرى من إبلا إلى أريحا، إن علم دراسة المستندات القديمة وعلم قراءة النصوص القديمة سمحا لنا بتأريخ هذه النصوص في نهاية السلالة القديمة الثالثة، ومن وجهة نظر تاريخية، نعتقد بأنها سبقت قليلاً فتح صارغون الأكادي بحوض الفرات الأوسط.

انتشار الكتابة في سورية: إبلا

ل. ميلانو
تعريب: ي. الكجك

إن اكتشاف المحفوظات الإدارية في القصر الملكي في إبلا (تل مرديخ). الذي جرى مابين ١٩٧٤ـ١٩٧٦، قد فتح فصلاً جديداً في معرفتنا لسورية خلال الألف الثالث ق.م،كان لهذا الكشف أثر كبير وحاسم، ليس فقط بسبب المعطيات التاريخية التي يمكننا الوصول إليها، ولكن أيضاً بسبب المعلومات التي يقدمها لنا حول تاريخ الكتابة المسمارية.

لقد كتبت هذه الرقم، في الواقع، وفق سمات مشابهة للتي إبتكرت للكتابة المسمارية قبل حوالي ألف سنة في بلاد الرافدين الجنوبية. قبل إكتشاف إبلا، كانت قد اكتشفت رقم مسمارية أقدم بقليل في ماري (تل الحريري)، ولكن كان وجود كتابة مسمارية على طول الفرات أمراً أكثر توقعاً مما في إبلا التي تقع بعيداً عن النهر. وقد أيد الإكتشاف الجديد لنصوص تل بيدر، التي تم تأرخيها بحوالي ٢٤٠٠ق.م، نظرية إنتشار الكتابة المسمارية باتجاه الشمال، ومع ذلك تبقى حالة إبلا معزولة، وشاهداً فريداً على استعمال الكتابة المسمارية إلى الغرب من الفرات في فترة ماقبل الصرغونية. وبذلك يمكننا طرح السؤال لمعرفة متى وكيف تم إختيار الكتابة المسمارية في إبلا، وماهي التعديلات الضرورية التي طرأت على اللغة السامية المحلية المدعوة (الإبلائية).

إنه من المؤكد، من الآن فصاعداً، بأن إدخال الكتابة المسمارية إلى إبلا تزامن مع المرحلة الأقدم، من إعمار الموقع. إذاً يمكننا التسليم بأن بداية تطور الكتابة المسمارية الإبلائية، قد تم في المرحلة الأخيرة من عصر البرونز القديم III (حوالي ٢٦٠٠ ق.م). لقد شهدت سورية خلال تلك الفترة تطوراً سريعاً نحو التمدن، وبمقتضى الضرورات الإدارية والحسابية غدت الكتابة المسمارية في ذلك الوقت واحدة من الوسائل التقنية والثقافية، التي لاغنى عنها لإقامة صلات دولية.

خلال الثلاثة قرون التي إنقضت مابين ولادة إبلا كمركز حضاري، وبين الوثائق المنقوشة التي عثر عليها في هذا الأرشيف، تطورت الثقافة الكتابية الإبلائية بحيث كتبت بخطوط مميزة. لقد تطابق ـ فعلياً ـ نظام الكتابة الإبلائية في الأرشيف الإداري وبشكل كبير ـ من وجهة شكلية ـ مع نظام الكتابة في العصر ما قبل الصارغوني.

ومع ذلك كان فهرس الإشارات أكثر إختصاراً، وكانت القيم الصوتية هي أكثر تخصصاً وفقاً للنظام الصوتي الإبلائي، ولكن قبل كل شيء، كان الإستخدام الخطي للنسّاخ يتميز باعتماد مختصرات وإشارات مركبة وقيم رمزية لم تطابق نماذجها أبداً. وبذلك يكون النسّاخ قد تعلموا الكتابة وفق قاعدة الفهرس المعجمي الذي كان مستخدماً في بلاد الرافدين في فترة السلالات القديمة، والذي تم إجراء تعديلات عليه حسب معايير تتناسب مع حاجاتهم الخاصة. يلاحظ هذا التطور في عدة نصوص ذات الطبيعة المدرسية «قائمة الإشارات»، قوائم معجمية «وحدة اللغة» بالسومرية، وفي ثنائية اللغة «سومرية ـ إبلائية». كانت قائمة الإشارات تتضمن كتابة بإشارات سومرية، هذا ماله أهمية كبيرة، ليس فقط لمعرفة اللفظ المستخدم بشكل عام من قبل الإبلائيين الذين كانوا يتعلمون قراءتها وكتابتها، ولكن أيضاً لتحديد اللفظ السومري، الذي لم نعرفه بشكل آخر إلا من خلال نصوص أكثر حداثة.

أما بالنسبة للمفردات ثنائية اللغة، فإنها تقدم لنا معلومات حول المعاجم الإبلائية، وأيضاً حول التقاليد النسخية، إذ أن النسّاخ الإبلائيين قد إبتعدوا عن تقاليد النسّاخ الرافدين، أكثر بكثير مما فعله نسّاخ ماري، أو بيدر، فالكتابة قد وصلت إلى هنا بشكل أكثر مباشرة، على طول الطرقات التجارية الشمالية التي كانت تتبع مجرى الفرات والخابور.

إننا نجهل، فيما إذا جرت تحولات جذرية في إبلا إبان توسع

الإمبراطورية الأكادية، حتى أنها مست التقاليد الأدبية والتي فرضها الحكام الأكاديون على كافة مناطق أواسط الرافدين، إلا أننا نعلم العكس، فمنذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، ومع إنتشار السلالات العمورية في سورية وبلاد الرافدين، كانت إبلا، من وجهة نظر كتابية وثقافية، تشكل جزءاً من «عالم مسماري» متجانس أكثر من الألف الذي سبقه.

التطبيقات الإدارية: فن حفر الأختام والكتابة

ي. ڤويت +ج. برتشنايدر
تعريب: ب. زهدي

يعد استخدام الأختام أحد الإبتكارات الأكثر أهمية في حضارة بلاد مابين النهرين بعد إبتكار الكتابة. تتجلى أهمية هذه الأختام في العديد من المطبوعات التي كرسها الآثاريون ومؤرخو الفن للعديد من الأختام وطبعات الأختام وصورها المتنوعة، من حيث الطراز والزخارف التي صُوّرت عليها. بدون أدنى شك، تمثل هذه الأختام مصدراً أساسياً لدراسة علم صور الشرق الأدنى القديم، ومنجماً من المعلومات عن الميثولوجيا والديانة وعن الحياة اليومية أيضاً.

إلى جانب الدراسات المتعلقة بشكل أساسي بعلم الصور، لقي في السنوات الأخيرة المظهر الوظيفي لطبعات الختم اهتماماً خاصاً. وإذا كانت الإدارة والتجارة المعاصرة استخدمت وثائق ممهورة، وبضائع مختومة، فإن العصور القديمة أيضاً كانت تستخدم الأختام لتثبيت شرعية البضائع أو الوثائق عند تصديرها، استلامها وتخزينها. ظهر الختم أيضاً وقتئذ كحماية فعالة ضد الممارسات غير الشرعية، وكانت الرقم المسمارية مغطاة بطبعات ختم، وذلك في معظم الأوقات قبل كتابتها. إن تطور التنظيم الإجتماعي نحو البيروقراطية المتنامية من جهة، وتوسيع العلاقات التجارية من جهة ثانية اقتضيا وجود محاسبة معقدة أكثر فأكثر، وهكذا غدت العلاقة بين الأختام والنصوص أساس التقنيات البيروقراطية.

استخدم في الشرق الأدنى نوعان من الأختام هما: الخاتم، والختم الإسطواني، والخاتم هو الشكل الأكثر قدماً، والذي دام زمناً أكثر، وهو الأكثر إنتشاراً. أما استخدام الختم الإسطواني فهو معاصر للكتابة المسمارية أوسبقها بقليل، وإن هبوط شعبيته وزواله النهائي لمصلحة الخاتم كانا متوازيان مع الإستبدال التدريجي للرقم الطينية بالرق.

وكانت أختام عصور ماقبل التاريخ تطبع ربما على سدادات من الطين التي تغلق جرار الخزن. وهكذا فإن الخاتم عبّر قديماً عن وظيفة «علاقة الملكية» وذلك قبل إبتكار الكتابة، فكان بالنسبة للمالك واسطة لتثبيت شرعية ملكه، وإن أمثال هذه الأختام قد وصلت في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد إلى درجة عالية من الدقة في الطراز. ولكن بظهور الختم الإسطواني في نفس العصر، أخذ استخدام الخاتم بالزوال لعدة آلاف من السنين.

لقد ظهر الختم الإسطواني مباشرة قبل إبتكار الكتابة المسمارية، ومثل الخاتم، فإن الختم الإسطواني قد استخدم لتوثيق مختلف الأشياء والوثائق. وزوّدت أقدم الرقم المكتوبة بسرعة كبيرة بطبعات أختام إسطوانية، وإنتشرت الرقم المسمارية والأختام الإسطوانية معاً. وهذا ما أمكن ملاحظته في المستوطنة التجارية (حبوبة كبيرة) في شمالي سورية، والتي كانت ذات صلات مباشرة مع مدينة (أوروك) في بلاد مابين النهرين الجنوبية.

لقد دلت سابقاً النصوص البدائية في أوروك على أن التنظيم الإداري معقد بعض الشيء ، ولكن قبل هذه الرقم والتي مهدت لتنظيم وظيفي. كانت الأختام تستخدم لمراقبة البضائع والخدمات، كما هو الحال في يومنا في الإدارة العامة والخاصة.

وكانت السلطات تضع علامة على الأموال والوثائق وهي بذلك تثبت الشرعية وتراقب التصدير والإستلام والنقل.كانت البضائع التجارية محمية بالأختام ضد كل تملك غير شرعي، والجرار والصناديق كانت تُغلق من قبل المصدّر، ومن ثم تلصق عليها بعدئذٍ قطعة طينية عليها ختم المصدّر، وكان المستلم الشرعي هو من يحق له كسر طبعة الختم، وغالباً ما كان البيع والتصدير أو تسليم البضائع أيضاً مصحوباً برقيم، كان بدوره ممهوراً ، وعليه مبلغ العقد محسوباً.

بعد حضارة أوروك ، الحضارة المجددة من عدة وجوه، أي خلال العصورالتي تلتها ـ فترة حكم السلالة البدائية والعصر الأكادي، وهي الفترة الممتدة بمجموعها خلال معظم الألف الثالث ق.م.

كانت الرقم المهمورة نادرة. وحتى في الوثائق المكتشفة في تل بيدر، والتي تعود إلى نهاية السلالة البدائية، لايظهر حتى الآن فيها أي رقيم عليه طبعة ختم . وبالمقابل، فإن أبواب وجرار الخزن كانت ممهورة غالباً بخاتم أو ختم اسطواني، وكان هذا الإجراء يضمن سلامة البضائع التي تخص الوحدات الإقتصادية الكبيرة مثل المعبد أو القصر.

عُثر في تل بيدر على العديد من نماذج الأختام التي عليها آثار مرئية للأشياء التي مُهرت بها، وقد عثرنا على طبعات حبال وسدادات ومنسوجات وجلود وخيزران وألياف من الخشب. وإن مكان الإكتشاف يتدرج من البيت الخاص إلى المبنى الرسمي والإداري والإقتصادي. الأختام كانت عديدة، تمهر بها أبواب المخازن بهدف منع الدخول إليها، ولإخطار اللص المحتمل بأن الموظف المراقب، هو مسؤول عن سلامة أمكنة التخزين. إن دراسة مفصلة للطبعات تسمح بتحديد مختلف أشكال الإغلاق..لقد أكتشفت طبعات أختام مُهرت على عنق أو سطح جرار الخزن في مبنى إداري كبير، الذي كان من المحتمل أنه يستخدم كمخزن رسمي. وفي هذا المكان كانت توضع البضائع التي كانت ملكاً للكيان الإقتصادي المركزي. وهناك قطع طينية أخرى تمثل على خلفها آثار واضحة لحقائب مغلقة بحبل أو أيضاً طبقة سلال الخيزران، وعلاوة على ذلك عثرنا على عدد من القطع الطينية المهمورة، التي كانت تستخدم كبطاقات مثبتة لحقيبة بواسطة حبل، نوعاً ما مثل الوقت الحاضر، حيث يُستخدم قرص رصاصي لضمان إغلاق الحقيبة. وكانت الأختام أيضاً تدور مباشرة على عنق الجرة قبل الشي، أو على ألسنة، أي نطاقات طينية دقيقة كانت توضع على الأواني. وكل هذه التطبيقات ملاحظة في تل بيدر.

بعد غياب الرقم المهمورة تقريباً أثناء عصر السلالة البدائية والعصر الأكادي، فقد عثرنا على رقم ممهورة في نحو نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وفي عصر سلالة أور الثالثة عندما أُعيد تنظيم الطراز االإداري ليغدو بيروقراطية واسعة ومعقدة، فإن الرقم كانت من جديد مغطاة بطبعات أختام، وهذه الطبعات كانت تستخدم لضمان دقة وأصالة الوثيقة. وكانت بيروقراطية عصر سلالة أور الثالثة ذات سفسطة متطرفة، وكما كان حال العقود التجارية والأوامر الإدارية توضع خطياً، وتنفيذها ذاته يوجد الرقيم، الذي كان في الغالب، ممهوراً بأختام شهود. ويستنتج أنه من هكذا إجراء بسيط يمكن أن ينتج عدداً كبيراً من الوثائق المكتوبة مما كان يثقل أيضاً إدارة هذا العصر.

وفي العصر البابلي القديم الذي تلى، كانت العقود التي تتطلب بشكل خاص مسؤولية متبادلة، مثل عقود الزواج، والوراثة، وإقتسام الملكية والمنازعات الحقوقية هي التي تثبت استخدام الأختام بشكل رئيسي. ويمثل النص قراراً مكتسباً، وهذا هو سبب تدوينه في الماضي، وكونه يمثل بروتوكولاً يُتلى بحضور عدد من الشهود الى جانب الفرقاء. وإن أختام كل هؤلاء الأشخاص يمكن أيضاً تمريرها على الرقيم. ويصادف في العصر البابلي القديم تقليد جدير بالملاحظة، بشكل خاص: وهو أن الرقيم لعدد من نماذج العقود كان يوضع في ظرف كتب عليه نفس النص، وهذه الطريقة كانت ضماناً ضد الغش.

وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد نلاحظ ظهور طبعات أختام على الرقم المسمارية، إلى جانب استخدام وسيطرة دائمة للختم الإسطواني، وفي عصر يتميز بالعديد من الإتصالات الدولية بخصوص القضايا المتنازع عليها أوالمتفق حولها، ليس غريباً ـ كما يشاهد بشكل خاص عند التوسع الحثي في سورية ـ أن يكون هناك استخدامات خاصة تتعلق بالأطراف متداخلة مع التقليد النموذجي لبلاد النهرين. ولدى الملوك الحثيين في الأناضول، فإن الخاتم قد أزال الختم الإسطواني كما تدل على ذلك وثائق إيمار في سورية، حيث كان يستخدم الختم والخاتم في آن معاً.

وفي الألف الأول، وبشكل أدق، منذ العصر الأشوري الجديد، يلاحظ عودة الخاتم إلى الظهور ببلاد مابين النهرين أيضاً بعد هيمنة الختم لآلاف من السنين، وفي النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد عندما أخذ الرق يحل شيئاً فشيئاً محل الرقم الطينية كدعامة الكتابة. غدت الأختام الإسطوانية أيضاً مهجورة، فأخذ الخاتم مكانه السائد لأنه يمكن طبعه بسهولة أكثر على القرص الطيني المثبت على الرق، كما سيكون الحال أيضاً بالنسبة للشمع في العصر الوسيط بل وفي أيامنا هذه.

الكتابة المسمارية الكلاسيكية في الألف الثاني قبل الميلاد

ك. ڤان ليربيرج
تعريب: م. المقدسي

ملوك آموريون وتجار آشوريون في بداية الألف الثاني:

لقد أثرت التغيرات السياسية والثقافية التي حدثت في مناطق الشرق الأوسط مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد على نشر وتطور الكتابة، ولعب الآموريون الدور السياسي الأهم في المنطقة بالإضافة إلى وجود عدد من المجموعات البشرية المفردة التي شكلت وحدات مستقلة لها حاكمها المحلي.
أما في سورية فقد سيطر الأموريون على أغلب المناطق وقاموا بتأسيس ممالك صغيرة وكبيرة على أنقاض الأمبراطورية السومرية الحديثة.
وقد كان اتصال هذه المجموعات البدوية مع المجتمعات المتحضرة والمتقدمة من النواحي السياسية والإجتماعية الأثر الأكبر على مثاقفة القبائل الأمورية التي تبنت الكتابة المسمارية والمصطلحات القضائية والإدارية السومرية والأكادية وبذلك أصبحت اللغة الأكادية القريبة من الأمورية هي اللغة الأساسية التي استعملتها المجتمعات الأمورية.

انتشار وتنوع اللغة والكتابة عند الأموريين والآشوريين:

انقسمت اللغة الأكادية خلال الألف الثاني قبل الميلاد إلى لهجتين رئيسيتين: البابلية القديمة والآشورية القديمة، وقد أعطت الحفريات الأثرية التي نفذت في سورية وثائق محررة باللهجة البابلية القديمة بالرغم من وقوع بلاد آشور على مقربة من المراكز والمواقع السورية.
وقد استعملت اللهجة البابلية القديمة في مناطق الجزيرة العليا والخابور والفرات الأوسط وهذا يعود إلى الأحداث السياسية التي نتجت عن الإجتياح العسكري الذي قام به نارام سين في مناطق أشنونا وآشور في القرن التاسع عشر قبل الميلاد (راجع Charpin 1995: p. 813). وقد ترسخ استعمال البابلية القديمة بعد فتوحات الملك شمسي آدر الأول وقد شهد على ذلك مجموع الرقم المكتشفة في تل ليلان (Ismail 1991) وشاغار بازر (Talon, Hammadé 1997) وموقع كازاتي هويوك في منطقة أورفه/حران).

الحوريون، قوة جديدة في شمال سورية:

لقد كان اكتشاف أوركيش العاصمة الدينية للحوريين في موقع تل موزان هو الحدث الأهم في الأبحاث الأثرية التي نفذت حديثاً في سورية.
في حقيقة الأمر إن نسبة هطول الأمطار العالية في الشمال السوري قد جذبت في بداية الألف الثاني قبل الميلاد عدداً من المجموعات البدوية مما أدى إلى استقرارها وقيام العديد من الحضارات.
وقد أسس الحوريون وإلى جانبهم الميتانيون مملكة هامة اتصفت باستعمال لغة خاصة في كتابة النصوص الميتولوجية والملحمية والطقوسية والعلمية (راجع بالنسبة لتاريخ المنطقة Wilhelm 1989 وأما بالنسبة لأرشيف مدينة نوزي، راجع Owen 1981).

الامبرطورية الآشورية الأولى والكتابة:

لقد أدت الحفريات التي نفذت مؤخراً في المواقع السورية العائدة إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد إلى الكشف عن العديد من النصوص الهامة المؤرخة في الفترة التي يطلق عليها بالفترة الأشورية الوسطى وقد أعطتنا الرسائل المكتشفة في مواقع تل

الشيخ حمد، تل الخويرة وتل الصبي الأبيض، وتل الفخيرية، تل برّي وتل براك فرصة هامة لدراسة طبيعة هذه الكتابة وعلى الخصوص مقارنتها مع الكتابات الرسمية التي اكتشفت في موقع تل بديري (راجع بهذا الخصوص - Maul 1995, Cancik (Kirschbzum 1996.

وقد اظهرت عملية المقارنة بين الكتابات الضخمة المحررة بالبابلية القديمة (قانون حمورابي) ورسائل مدينة سيبار مع الرسائل المحررة بالأشورية القديمة استعمال الكثير من الصيغ القديمة في الرسائل المحررة بالأشورية المتوسطة وعلى الخصوص في الكتابة المقطعية العائدة إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

الكتابة الهيروغليفية في سورية:

استعملت الدول الحثية الجديدة المتشكلة حول كركميش وفي مناطق تل برسيب في حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد الكتابة الهيروغليفية لتحرير النصوص الهامة المنفذة على الحجر. وهذا ليس بالمستغرب حين نعلم كثافة وجود هذا النوع من النصوص في الأناضول والمناطق التي كانت تحت سيادة الحثيين وفي هاتوشا. لكن الأمر الهام والمستغرب هو استعمال الهيروغليفية بدلاً عن المسمارية في مناطق سورية الشمالية في كتابة السبائك الرصاصية بالإضافة إلى الرسائل والعقود.

اللوقية هي اللغة التي كتبت فيها هذه النصوص الهيروغليفية وهي عبارة عن لغة هندو- أوربية قريبة جداً من الحثية المستعملة في هاتوشا. لا يمكن تفسير ظاهرة استعمال هذه اللغة في شمال سورية إلا من خلال وجود جماعات هندو أوربية كانت متواجدة زمن تأسيس الدويلات الآشورية الحثية (راجع بهذا الخصوص (Hawkins 1995.

أوغاريت موطن أقدم الأبجديات

م. ديلتريش

تعريب: م. المقدسي

١ ــ الأبجديات المسمارية الأوغاريتية نتاج تاريخ متشعب:

تمكن الأثري الفرنسي كلود شيفر بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠ من الكشف بين أطلال موقع رأس الشمره/أوغاريت في الشمال السوري إلى الغرب من مدينة اللاذقية، عن مجموعة من الرقم المسمارية العائدة للقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

بالمقابل استطاع العالمان الألماني هانس بوير والفرنسي إدوار دروم من دراسة هذه الرقم والكشف على أنها تنتمي إلى تقاليد في الكتابة المسمارية تختلف بشكل جذري عن الأسلوب الرافدي، حيث تضم ثلاثين إشارة مختلفة وبالتالي فإنها عبارة عن نظام كتابي أبجدي جديد وغير معروف. بالمقابل فقد أثبتت مقارنة هذه اللغة مع باقي اللغات المعروفة في سورية وفلسطين على أنها تنتمي إلى عائلة اللغات السامية وهي عبارة عن لهجة قريبة من النصوص الكنعانية المعروفة لدينا، في حين أنها أقرب ما تكون إلى اللغة العربية من الناحية الصوتية اللفظية.

مكنتنا الرقم المدرسية المكتشفة في عام ١٩٤٩، والتي تحمل إشارات مرتبة بتسلسل أبجدي من الحصول على أقدم شاهد عن أبجدية محررة من قبل الأوساط الأدبية والتي سبقت الأبجدية الفينقية وتزيد عنهما بثمانية أحرف. وقد تم العثور بالإضافة إلى النصوص المكتوبة بهذه الأبجدية المؤلفة من ثلاثين حرفاً على نصوص محررة اعتباراً من أبجدية مختزلة تتألف من اثنين وعشرين حرفاً تكتب مثل الكتابة الفينقية من اليمين إلى اليسار وبذلك نستطيع أن نقول إن مدينة أوغاريت كانت تستعمل أبجديتين: الأبجدية المختصرة القريبة من الفينيقية والأبجدية الطويلة التي كانت تلبي حاجات اللغة الأوغاريتية.

أدت الأبحاث التي تمت حول أصول الأبجدية الأوغاريتية الطويلة من قبل العالم آ. ج. لوندين من سان بتيرسبورغ ومن قبل كاتب هذه المقالة إلى التعرف على وجود رقيم مسماري صغير يعود إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد اكتشف في عام ١٩٣٣ في موقع بيت شمش من قبل المنقب ي. غرانت. يحمل هذا الرقيم تسلسلاً أبجدياً يبدأ بالأحرف ح، ل، خ، م وهذا شبيه بالتسلسل المكتشف في أبجديات اليمن واللهجات العربية الجنوبية العائدة إلى الألف الأول. من هنا نستطيع أن نقول إن الأبجدية المعروفة في المناطق العربية الجنوبية تعود لفترات أقدم مما عليه الآن ومن المحتمل أن تكون أصولها الأولى قد حررت على الشكل المسماري وعلى رقيم طيني وفقاً للتقاليد البابلية.

وقد تم التأكد من وجود علاقة بين موقعي أوغاريت وبيت شمش بعد أن كشفت البعثة الفرنسية في عام ١٩٨٨ ضمن أرشيف التاجر اورتينو نصوص حررت وفق تقاليد الأبجدية العربية الجنوبية، وبالتالي فإننا نستطيع أن نتصور وجود علاقة كانت قائمة بين أوغاريت والمناطق العربية الجنوبية، وبذلك نستطيع أن نقول أن الموقع التجاري المتميز لأوغاريت قد لعب الدور الأهم في الربع الثالث من الألف الثاني في تاريخ تطور الكتابة الأبجدية.

١ ــ لم تكن مدينة أوغاريت كما هو متوقع المكان الذي انجزت فيه الأبجدية بل تطور فيها المفهوم الأبجدي بين التقاليد الشمالية الغربية (ا ـ ب ـ ج) والتقاليد الجنوبية الشرقية (ح ـ ل ـ خ ـ م) وبذلك يمكننا القول أنها لعبت الدور الهام في التطور المتشعب لهذه الكتابة الأبجدية.

٢ ــ إن ظهور الكتابة الأبجدية المسمارية في أوغاريت يعكس بشكل واضح تطور الأبجديتين المشرقية المؤلفة من ٢٢ حرفاً العربية الجنوبية . والذي شكل في نهاية الأمر الأبجدية الأوغاريتية المؤلفة من ٣٠ حرفاً.

وهكذا يمكننا أن نفهم الدور التاريخي الذي لعبته مجموعات التجار الذين هاجروا نحو الشمال من المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من فلسطين تركوا في أوغاريت بصمات راسخة وثابتة في

تاريخ الأدب والكتابة وذلك بنقل لغتهم الأصلية إلى مدارس الكتبة. وهذا أدى بدوره إلى انتشار الكتابة الأبجدية على مناطق واسعة وصلت إلى السواحل القبرصية (موقع هلا سلطان تيكه).
أما هذه الكتابة الأبجدية المسمارية فتتألف من مجموعة من الأحرف الصامتة والمشكلة والمستعملة في أغلب الأحيان بشكل متناوب وبالتالي فإننا نستطيع أن نلاحظ، وبشكل مباشرة تشكل مقطع لفظي يتألف من حرف صامت وحرف مشكل.

٢ ـ تباشير الأبجديات الأوغاريتيه

لايمكننا أن نتتبع بشكل واضح بدايات الكتابة الأبجدية لكن من المحتمل أن تكون أولى المحاولات قد تمت في المناطق الجنوبية من خلال الكتابات التي تعرف تحت اسم ما قبل السينائية أو كتابات سيناء القديمة. هذه الكتابة الصعبة نقشت بواسطة أحرف غير واضحة قد تكون هيروغليفية أو مقطعية، وهي مؤرخة ضمن شريحة زمنية فضفاضة تتأرجح بين القرن السابع عشر قبل الميلاد والقرنين الرابع أو الثالث عشر قبل الميلاد.
وبما أننا لا نمتلك معلومات واضحة عن أصول هذه الكتابة الأبجدية في المناطق التي استعملت فيها، فإنها من المحتمل أن تكون قد اقتبست في النصف الأول من الألف الثاني من الكتابة المصرية المبسطة التي تعرف بالكتابة الهيرية.

٣ ـ ورثة الأبجديات الأوغارتية:

بعد سقوط العاصمة التجارية الأوغاريتية في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد واستبعاد السلالة الحاكمة التي كانت تستعمل الكتابة الأبجدية في الأدب المحلي، انتهت وبشكل كامل تقاليد استعمال الكتابة الأوغارتيية المدونة على الرقم المسمارية. وبالمقابل تزايد استعمال الأبجديات الفينيقية والكنعانية الأولى والكنعانية القديمة في المنقوشات الضخمة وعلى الكسر الفخارية.
في حقيقة الأمر أجمع العلماء أن أقدم شاهد عن الكتابة الفينيقية هو النص الذي نقش على غطاء ناووس أحيرام الجبيلي المكتشف في عام **١٩٢٣** والذي يعود إلى حوالي **١٠٠٠** قبل الميلاد وهو يحمل الكثير من خصائص الكتابة الفينيفية المتأخرة بالإضافة إلى الآرامية القديمة والعبرية القديمة والبونية وبذلك نستطيع أن نقول أننا أمام نمط كتابي شبه موحد استعمل في كامل المناطق الشرقية من المتوسط منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وانتشر في فترات لاحقة في مناطق واسعة حتى وصل إلى بلاد اليونان.
وخلاصة الأمر فإن الأبجدية الأوغاريتية التي ابتكرت في النصف الثاني من الألف الثاني استخدمت خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً لا تتعدى ١٥٠ سنة، وقد انتشرت في كافة أرجاء المتوسط اعتباراً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ووصلت إلى ذورة اكتمالها في الأبجدية اليونانية في بدايات الألف الأول قبل الميلاد.

النصوص الأدبية والمساهمة الثقافية

ف. تالون

تعريب: هـ. عمران

تفتقد بلاد الرافدين للسحر الذي يذهل الجمهور على عكس الآثار المصرية الضخمة والأهرامات والمعابد، ولاتتمتع سهول مابين النهرين الواسعة الكئيبة بالجاذبية التي تقدمها المواقع القديمة الأخرى في العالم، أما التلال الأثرية، فليس فيها سوى قطع من الآجر الأجوف في أغلب الأحيان، والتي من غير الممكن إعادة تشكيلها، وهي بذلك لاتسهل عمل المرمم، لأنها لاتتيح له استخدام خياله لتصور شكلها السابق، كما تحبط الكتابة المسمارية أكثر الدارسين حماساً.

لكن الرقم المسمارية تعطي للباحث المُجِد الحيادي الواسع الأفق ثروة لاتعادلها إلا بعض اللقى الكلاسيكية. لقد أخرج الآثاريون منذ أكثر من ١٥٠ عاماً مئات الألوف من النصوص الممتدة على مدى ثلاثة آلاف عام، فكل يوم تكتشف رقم جديدة تغني معارف العلماء والتي هي في تطور مستمر، وبالتأكيد إن مليوناً من هذه الرقم التي بين أيدينا اليوم ليست من نمط متجانس، إلا أن أغلبها يتألف من وثائق إدارية جافة دراستها صعبة، لكن النتائج تسمح بتصورالحياة الاقتصادية وبنى المجتمعات القديمة، وقد برع الكتّاب الآشوريون والبابليون في أسلوب كتابتهم بإعطاء معاني متعددة لجملهم، وقد نظم بعضهم قصيدة لمردوخ لمدح آشور بانيبال، تألفت من ثلاثين مقطعاً وأول رمز من كل مقطع يشكل جزءاً من جملة، وإذا قرئت الرموز الثلاثين معاً بشكل شاقولي تشكلت الجملة التالية: «أنا آشور بانيبال الذي ناداك: أعطني الحياة يا مردوخ وسأقر بخصالك»، وهناك مثال أكثر تعقيداً حيث يشكل الرمزان الأول والأخير من كل بيت جملتين مختلفتين إذا ماقرئت الرموز شاقولياً.

إن الآداب التي تصنف على أنها علمية ليست محددة بدراسة الكتابة فقط، بل تمتد إلى مجالات أخرى مهمة، كانت هي الأخرى موضع اهتمام سكان بلاد مابين النهرين، ومن أهم المواضيع التي كانت تثقل الآشوريين والبابلين بشكل دائم البحث عن إرادة الآلهة في العالم، فقد خلق إنسان مابين النهرين لخدمة الآلهة، والآلهة قوية، رغباتها ونزواتها قانون، ومصير الإنسان مرتبط بشكل كامل بأهواء الآلهة دون أن يسّير لحكم خياره أي سبب ظاهري، فالإنسان السعيد هو ذلك الذي يرعاه الإله، وإذا كان وجه الإله متجهاً باتجاه إنسان ما فهو دلالة على رضاه عنه، أما إذا أدار الإله وجهه عن هذا الإنسان فستتلاحق المصائب عليه تلقائياً، وليس هناك قواعد مبدئياً لرضى الآلهة أو عدم رضاها، فهي تتحرك ضمن عالم خاص يجهله الإنسان، ويزداد الأمر مأساوية عندما يتعلق الأمر بالملك، فهو الصورة الفانية للآلهة على الأرض ويجسد الإزدهار في بلده ، فإذا حصل على الرضى الإلهي أصبح بلده سعيداً أو غنياً، وإذا حاد عن الطريق الذي ينبغي أن يتبعه أو تخلت عنه الآلهة لسبب مجهول، فإن ذلك سيؤثر على بلاده وعليه بنفس القدر، ولذلك فمن الضروري بمكان للملك أن يجرب وبكل السبل التنبؤ بالرغبات الإلهية، فالآلهة الرحيمة ترسل بشكل دائم إشارات وتلميحات لها صلة بالمستقبل، وعلى الإنسان أن يحسن تفسيرها ويتصرف على أساسها، فجميع الأحداث في بلاد مابين النهرين يتم تأويلها، كالظواهر المناخية والفلكية والولادات الغريبة عند الحيوانات والبشر وتصرفات الحيوانات وطرق بناء المدن وحتى طريقة التحية في الشارع، لكن أكثر الطرق فاعلية في التنبؤ هي فحص أحشاء الخروف.

تعتبر أسطورة الخلق التي يسميها القدماء بالكلمات الأولى منها Enuma elis أي «حصل ذات مرة بالأعلى» من أجمل الأمثلة على الأساطير البابلية، وقد تم تأليفها في حوالي نهاية الألف الثاني ق.م، وهي ثمرة عمل الكهنة البابليين بإدخال كل التقاليد القديمة السومرية ـ الأكادية وجعلها في خدمة دين جديد، احتل

فيه مردوخ المكان الرئيس حيث كان الإله الحامي لبابل، وقد كتب النص العظيم على سبع رقيمات، وينتهي بتمجيد مردوخ وتعداد أسمائه الخمسين السرية، وقد وصف مرودخ في هذه النصوص "اينوما ايليش" أنه ابن الإله "إيا" سيد الحكمة والذكاء والمياه العذبة، وقد تلقى من الآلهة الآخرين القدرة والقوة وأرسى نظام العالم.

وقد ذكر خلق الإنسان في العديد من الأعمال، بشكل متناقض أحياناً، لكن أغلبها يؤكد على أن الإنسان قد وجد على الأرض لخدمة الآلهة لتوفير أوقات فراغ وراحة لها ودون أن يهتم بوجوده الخاص، وقد وصف ذلك في أسطورة أتراحيوس Atrahosis الحكيم (وهو اسم آخر لـ إيا)، ففي البداية يقول النص (الرقيم I، ١ـ٦):

عندما كانت الآلهة ماتزال كالبشر

كانت تقوم بأعمال السخرة وتتحمل العناء

كثير كان عمل الآلهة

وقاسٍ كان عملهم، وكانوا يشعرون بالوحدة

السبعة الكبار أنوناكي Anunnaki

أثقلوا على إيجيجي igigi بالعمل

وقد قررت الآلهة الأقل شأناً (إيجي) إحراق أدواتهم، وذهبوا غاضبين إلى إنليل سيد مجمع الآلهة للاحتجاج، فجمع هذا الأخير المرعوب مجلس الآلهة الكبار لإيجاد حل، وكان "إيا" الحكيم هو الذي وجد الحل، فاقترح خلق كائن جديد لإنجاز العمل الذي رفضته الآلهة، وكلفت إلهة الخصب «نينتو» Nintu بعملية الخلق، لكن نفخ الروح في الطين كان يتطلب روحاً إلهية فكان لابد من قتل إله وخلط دمه بالطين لخلق الإنسان.

لقد وصلنا الكثير من الأساطير، ومن الصعب ذكرها جميعاً، لكن أكثرها إثارة للإهتمام تلك التي تتحدث عن الإلهة عشتار، إحدى الآلهة الأكثر تميزاً في مجمع الآلهة الآشوري البابلي، وقد كانت عشتار الإلهة الكاملة بحيث أصبح إسمها مرادفاً لكلمة ايلتو Eltu التي تعني الإلهة باللغة الأكادية، لقد كانت عشتار شخصية مثيرة دارت حولها أغلب الأساطير، وتميزت بعاطفتها الجارفة سواء أكانت محاربة أو عاشقة، وقد كانت أولاً ربة الحرب، وكان من الصعب توقع تصرفاتها، وكانت أسلحتها ضماناً لنصر الملك الذي تختار مؤازرته، وقد جذبت عبادتها مجموعة كبيرة من الأشخاص غير الطبيعين منهم الشاذين جنسياً أو في أحسن الأحوال مضطربين نفسياً، وكانت هي نفسها إلهة الحب، إلا أنه لم يكن لها سوى العشاق، فلم تتخذ زوجاً أبداً ولم يكن لها أطفال، ويجب أن نطلع على كيفية معاملة جلجامش لها عندما عرضت نفسها عليه في غابة الأرز:

«أنت لست سوى نار تنطفىء في الجليد، وباب لايحمي لامن الهواء ولامن الريح».

لقد وعى السومريون الأكاديون العمق الزمني لحضارتهم وكنّوا للماضي إحتراماً وإعجاباً بلا حدود، في حين لم تكن طبيعة المجتمع الآشوري البابلي فاعلة متجهة نحو المستقبل بل على العكس كان المجتمع منغلقاً نحو الماضي الذي كان يمثل الكمال. ولم يكن مفهوم التطور واضحاً، بل سيطرت فكرة أن كلية الوجود هي في العودة للنظام القديم، وإن كل معرفة تنبثق من الماضي، وخاصة من الفترة الأسطورية التي سبقت الطوفان عندما عاش، كما يقال، «العارفون» الكبار، مصدر الحكمة وعلى رأسهم الحكيم "أدابا".

لقد حافظ المؤرخون في بلاد مابين النهرين على طريقة الجداول في التأريخ خلال فترتهم، لكن النصوص كانت مستوحاة إلى حد كبير من الفكر الملكي، بحيث كانت الملكية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، والسلالات الحاكمة لم تكن معاصرة أبداً وخاصة في العهود الأكثر قدماً. ولايمكن بأي حال من الأحوال الحديث عن النصوص "التاريخية" دون أن نرجع الى حوليات الملوك الآشوريين، وهي نوع من الآداب تطورت عن النقوش التأسيسية التي كان ملوك مابين النهرين يضعونها في أساسات المعابد والقصور التي يقومون ببنائها، وقد كانت هذه الوثائق بسيطة في البداية، تذكر اسم الملك ولقبه وتصف إنجازاته بإيجاز، وقد تطور هذا الأدب في آشور بدءاً من نهاية الألف الثانية وأصبح له شكل متميز حتى تجاوزت نصوص آخر ملوك آشور الحديثة في القرن السابع ق.م الألف سطر، وقد كتبت على قطع موشورية الشكل من الآجر يصل عدد وجوهها في بعض الأحيان إلى إثني عشر وجهاً، واليوم غالباً ماتذكر هذه النصوص للدلالة على مدى عنف الجيوش الآشورية خلال غزواتها، ورغم أن بعضها يركز بشكل كبيرعلى العقوبات القاسية ضد الجيوش المهزومة، إلا أنه يجب أن نرى فيها أيضاً التأكيد الفكري على سلطة الآشوريين على جيرانهم، فآشور لم تكن سوى مملكة صغيرة جداً مساحتها ضئيلة عندما شرعت بتطوير قوتها الحربية والسياسية الأمر الذي قادها في

النهاية أن تصل إلى مصر وإيران، كما سمحت قوة جيوشها ومزايا التفكير الاستراتيجي لبعض حكامها بمد نفوذها على أغلب مناطق الشرق الأدنى، وقد سخر الفكر الموجود في الحوليات لتمجيد أفعال الملك ولبيان التوافق التام بين شخصه وبين الإله الأعلى آشور.

لم يكن من الغريب، في هذا العالم المسير بالرغبة الإلهية، أن يذهب بعض الكتاب بتفكيرهم الى حد بعيد، فهم عالجوا القضية الأخلاقية لعلاقة الإنسان بالآلهة، وقد كانت نتيجة أعمالهم غير متوقعة ومفاجئة، فقد أظهرت الأعمال الكبيرة استحالة معرفة التصرفات الإلهية وتوقعها وفهمها، فالدائرة الإلهية بعيدة جداً عن فهم الإنسان، ولا يمكن أبداً تحليل أفعال الآلهة بل يمكن إثباتها فقط، وتركز هذه الأعمال على فكرة القدرية وعلى الإنتظار والأمل بأن تقوم الآلهة بتغيير رأيها، وتظهر هذه الفكرة في قصة «Juste Souffrant» أو قصة «Théodicée» حيث يواجه الإنسان مصيره بعد أن تخلت عنه الآلهة كما يبدو، فماذا يفعل؟، ليس عليه سوى اللجوء الى الصلاة والتصرف بشكل صحيح وأخلاقي، وأن يؤدي الشعائر بإخلاص ويبدو أن شيئاً من هذا لم يحصل، فالآلهة، وإن أدارت وجهها وسببت الألم، إلا أنها يمكن أن تغير رأيها لأسباب غير معروفة وأن تعيد حمايتها للمنبوذ.

تظهر الفكرة نفسها في القصور الملكية، فالملك، صورة الإله على الأرض، يمنح بركته أويسحبها حسب مزاجه، وقد وصلتنا التماسات كُتب بعضها بشكل مؤثر، من بعض رجال البلاط الذين نبذهم الحاكم، والذين حاولوا بالكتابة إليه أن يستعيدوا بركته ورضاه، إلا أن الأمر كان على الغالب دون جدوى.

تظهر الفكاهة في بعض القصص مثل قصة الرجل الفقير في نيسابور، وهو رجل لم يكن يملك سوى الأسمال التي عليه، وقد اشترى عنزة عجوز، وذهب إلى الوالي ليتناول الطعام عنده، لكن الوالي طرده، فأقسم الرجل الفقير وكان اسمه جميل-نينتورا أن ينتقم بثلاثة أضعاف الإهانة، فذهب إلى الملك وإستعار منه عربة مقابل مبلغ كبير من المال، وقبل الملك بدافع الفضول أن يعود الرجل إلى الوالي، وفي الطريق اصطاد عصفورين ووضعهما في صندوق، ولما وصل إلى القصر، لم يتعرف عليه أحد، فطلب مقابلة الوالي الذي عامله حسب مظهره المترف، وخلال الليل حرر العصفورين، وفي الصباح أقام الدنيا مدعياً أن الذهب الذي كان موجوداً في الصندوق قد سرق وطالب الوالي بالتعويض، وأثناء خروجه عرّف عن نفسه قائلاً إن هذا هو انتقامه الأول، ثم تنكر في زي طبيب وعاد إلى قصر الوالي الذي كان يحتاج للعلاج بعدما حصل له، وقال الوالي لخاصته إن «هذا الرجل طبيب مشهور»، فادعى الرجل المتنكر «أن علاجه لايثبت فاعليته إلا في الظلام حيث يمنع دخول الناس»، فدخل إلى غرفة خاصة مع الوالي حيث لا يوجد أصدقاء، حيث ثبت خمسة أوتاد في الأرض، قيد بها الوالي من يديه ورجليه ورأسه وأخذ يجلده من رأسه حتى قدميه، فأذاقه طعم الموت ألف مرة، ثم غادر القصر معلناً انتقامه الثاني، ولما أيقن أنه سيكون من الصعب عليه دخول القصر للمرة الثالثة، دفع لرجل أفقر منه ليذهب إلى القصر وينادي: «أنا الرجل صاحب العنزة»، فانطلق الحرس في إثره تاركين القصر دون حراسة، فدخل وجعل الوالي يدفع الثمن للمرة الثالثة.

نرى مما سبق أن ثقافة بلاد مابين النهرين لم تكن متركزة فقط على قصص الغزوات والحروب، فالمواضيع التي تناولتها غنية ومتنوعة لايمكن ذكرها كلها هنا، فخلال ثلاثة آلاف سنة تطرق الكتّاب الآشوريون البابليون لجميع المواضيع وأغنوا وطوروا أدباً لا غبار عليه حتى عصرنا.

علم الكتابات القديمة: ماهي آفاقه؟

ك. ڤان ليربيرج + پ. ڤامباك
تعريب: إ. سنديان

خصصت النصوص السابقة للحديث عن تطور الكتابة وإنتقال هذا التراث الثقافي من سورية القديمة إلى مجتمعنا، ولكننا لم نخصص أي جزء لما يشكل أساس عمل المؤرخ أو عالم اللغة.

أصبح بالإمكان فك رموز الكتابة المسمارية بفضل أعمال النسخ التي قام بها علماء النقوش الأوائل، ففي ٢٨ كانون الأول من عام ١٨٥٠، كان السير أ. هـ. لايارد يتسلق صخرة بافيان لنسخ النقوش المنحوتة في الصخر للملك الأشوري سخريب. أما الآن، فإن عمل عالم النقوش الحديث أصبح مفتقراً للتشويق وشبه ممل. في الواقع، يعتبر علم النقوش واحداً من التنقيبات النادرة التقليدية جداً والتي مازالت تحتفظ بأهمية رئيسية لنشر معطيات جديدة مكتوبة بين علماء الأشوريات في العالم بأسره.

كيف يعمل عالم النقوش؟

كما يفترض في راهب العصور الوسطى أن تكون لديه معرفة جيدة باللغة اللاتينية والإغريقية لكتابة المخطوطات، كذلك يجب على عالم الأشوريات الذي ينسخ الرقم أن يعرف مختلف اللغات المكتوبة بالمسمارية. إن الرقيم الذي يحمل مئات الإشارات المسمارية يجب أن ينسخ علامة إثر علامة مما يتطلب معرفة حوالي ٦٠٠ إشارة مستخدمة في كل الفترات التاريخية.

ولما كانت الكتابة المسمارية قد استخدمت في الشرق الأوسط بأكمله خلال ٣٠٠٠ سنة تقريباً، فقد طرأ على فهرس وقيمة الإشارات تبدل ملموس. نتج عن ذلك أن عالم النقوش يفسر النقوش بعد نسخها.

وبالنتيجة، فإن عملية النسخ المستخدمة في الوسط العلمي تعتمد على الموهبة الفنية لعالم النقوش، وفي هذه الحالة يكون المظهر الأصلي للقطعة الأثرية أي الرقيم غير مرئي عموماً من خلال تلك العملية.

تكمن إحدى الصعوبات التي يواجهها عالم النقوش في إنه يعمل في حقل التنقيب أو في متحف لمدة زمنية قصيرة جداً في حين أن نسخ الرقم باليد عمل يتطلب وقتاً طويلاً جداً. لهذا فقد طرحت الجامعة الكاثوليكية في لوڤان، بتشجيع من عمديها الدكتور إ. آندريه أوسترلينك، مشروعاً يهدف لترميز صور الرقم المسمارية وتحسين نوعيتها، وذلك بفضل تقنيات معالجة الصورة، ونورد فيما يلي شرحاً مختصراً حول هذه التقينة الجديدة.

الحاسوب، راهب القرن العشرين

تكمن المشكلة التي نواجهها هنا في أنه ليس من السهل إجراء صور جيدة للرقم الطينية، حيث تكون الكتابة بارزة وذات لون واحد، لذا يجب أن يسلط الضوء على الرقيم من خلال نقطة ما، بحيث نحصل على ظلال في الأجزاء المنقوشة. وبهذه الطريقة فإن كافة أجزاء الرقيم لاتتلقى نفس الكمية من الضوء، وبهذا نحصل على قاعدة ليست ذات لون واحد. إضافة لذلك، فإن طبيعة الرقم غير المسطحة تسبب شيئاً من عدم الوضوح في المناطق خارج البؤرة، وبشكل خاص على انحناءات الأطراف.

وهناك خيار آخر يكمن في زيادة كمية الصور بعد التنقيب. وبهذا الخصوص، فإن استخدام الحاسوب يكون الخيار الأكثر وضوحاً. وتكمن التقنية المستخدمة في ترميز الصور بمساعدة الماسح الضوئي (سكانر) وتحليل ومعالجة الصور على الحاسوب وذلك للوصول للنتائج المرجوة. وعندما تظهَّر الصورة على المساح الضوئي (السكانر) فإننا نستطيع تكبيرها وتصحيحها وتظهيرها... إلخ بمساعدة مختلف أشكال التحليل والبرمجة. تعرض النتائج المدهشة لهذه العملية على شاشة ڤيديو وعلى وثائق مطبوعة.

ومن الممكن إرسال الصور المحسنة إلى مختبرات للطباعة، أو أن تُنقل بالبريد الإلكتروني إلى الباحثين المهتمين، كما يمكن أن تُبث على شبكة الإنترنيت.

ومستقبلاً، سوف تُرمَّز هذه الرقم في موقع تل بيدر وذلك باستخدام كاميرا رقمية، مما يسمح بالتأكد من نوعية اللقطات المأخوذة والحصول على أطراف أكثر وضوحاً، ويتم أخيراً إنجاز نسخ بسرعة أكبر وبموضوعية أكثر.

هذه النتيجة الجديدة موضحة في وامباك وماريان ١٩٩٦: ص١٩٥–١٩٨

وماذا بعد الكتابة؟

م. بروز + ف. تالون
تعريب: ي. الكجك

وصفت الفصول السابقة، الشروط التي ظهرت فيها ظاهرة الكتابة، في بلاد الرافدين. هذه الثورة الفكرية، التي أحدثت منعكسات ـ لا تحصى ـ على تاريخ الإنسانية. كما نستطيع أن نعرف «الثورة النيوليتية»، بأنها التغير العميق في العلاقات التي توجد بين الإنسان ووسطه الطبيعي من جهة، وعقله ولغته من جهة ثانية.
مع ذلك ربما ليس من العبث، إعادة الصلات مابين هذين الحدثين العظيمين، اللذان تمّا في نفس المكان، إذا أمعنا التفكير في مكتشفات (جرف الأحمر)، نكتشف أن المحاولات الأولى لترجمة الفكر بالكتابة، كانت هي أيضاً في بداية الفترة النيوليتية.
ومهما يكن من أمر، فمنذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها النيوليتية، شرع الإنسان بخطوة عجيبة لازلنا نلمس حتى اليوم تطورها، إنجازاتها وسلبياتها، ومنذ بدايات الزراعة، بدأ الوسط الطبيعي بالتغير. أليست الإزالة الكبيرة للغابات، التي يلاحظها الآثاريون، بالنسبة للفترات القديمة جداً، إلا صدى لما يقلق البيئين في العصر الحديث.

هل هذا مختلف بالنسبة للكتابة؟ كما هو بالنسبة للنيوليتية، فلقد تغيرت أشياء قليلة منذ المحاولات الأولى للجمع مابين الخطوط وجذور الكلمات وبين الإشارات والكلمات. منذ البداية إرتكزت الثورة الكبرى على جمع أية إشارة، حتى لو لم يكن إختيارها بمحض الصدفه، بكلمة في اللغة، أو بشكل أدق، بمجموعة عبارات مرتبطة بجذور كلماتها أو بمعانيها. سرعان ما أضيف إلى الإزدواجية الدلالية صوت. بدءاً من هذه المرحلة، لم يعد يعني التطور اللغوي، الشكلي، أو التبديل، تطوراً في النظام.
من المؤكد بأن النظام اللغوي، قد هُذب مع الزمن، مروراً بأطوار أخذ خلالها تعقيدات وتبسيطات. من النظرة الأولى، يمكننا الإعتقاد بأن التطور «الطبيعي» لنظام الكتابة، إتجه نحو التبسيط أكثر فأكثر، ويبدو أن الحال لم يكن هكذا.

لقد مر نظام الكتابة المسماري مثلاً بمرحلة إختزال كبيرة، في الفترة البابلية القديمة (أنظر مساهمة ب. مشلاوسكي). ألم يكن من الواجب، أن تكون الخطوة اللاحقة مبسطة أكثر للوصول إلى الأبجدية المسمارية؟. ولكن على العكس، فقد شهدت القرون التي تبعت الفترة البابلية القديمة، تعقيداً أكبر بكثير في نظام الكتابة، الذي أصبح بفضل الأدباء والمفكرين أداة رائعة لتطوير الفكر الترابطي. لقد وجد الفلاسفة البابليون والآشوريون، في كتاباتهم حتى في أقدم مراحلها أساساً لمعانٍ خفية، غريبة، دينية، أو فلسفية تمكنوا من إيضاحها، بعيداً عن البحث في جعل كتابتهم مبسطة أو جعلها شعبية، فقد جعلوا منها أداة خلق علمي.
اعتقدنا لفترة طويلة، أن ظهور وانتشار الأبجدية، كان يخص، بالضرورة، شعباً تعداد سكانه كبير، وإن نظام الكلام المقطعي، كالمسمارية، كان كما يقال، مخصصاً للنخبة، فهل كانت الحالة هكذا فعلاً؟

عندما نرى في النصوص المسمارية، العناية التي أولاها الحكام لمعرفة كل شيء يجري في مملكاتهم، حتى في التفاصيل الأكثر تفاهة، فهل يمكننا فعلاً الدفاع عن فكرة بأنهم كانوا أميين؟ إن هذا غير وارد. إن معدل الذين (يفكون الخط)، خلال حكم الإمبراطورية الأشورية، يجب أن يكون أكثر من ذلك بكثير، فلا بد أنه كان هناك إلمام بالكتابة لدى كل الموظفين، التجار، أعضاء الأسرة المالكة، الوجهاء، النبلاء، الممولون، بمستويات مختلفة، وإن كانوا لايستطيعون الخوض في النصوص الأدبية الكبيرة، أو العلمية، المكتوبة غالباً بلغة معقدة. لأنهم لم يكونوا بحاجة لأكثر من قراءة رسالة أو مراجعة حساب. اليوم أيضاً، في مجتمعاتنا المتطورة، حيث التعليم إلزامي، هل يمكننا أن نؤكد بأن الجميع لديه نفس الدرجة من المعارف الأدبية؟

إن تعقيد نظام الكتابة، ليس صعباً بحد ذاته. لنرى الكتابة الصينية، ملايين الأطفال يتعلمونها وبشكل منتظم، كما يفعل أطفالنا، دون أن يأخذوا وقتاً إضافياً، أو يجدوا صعوبة أكثر ويعتادوا كما نعتاد نحن لاشعورياً على نظام أبجدي، ونعتبره ممتازاً. وكما يبدو لنا فإن للإشارات السومرية دور صعب لايعقل، أما قراءة مخطوطة أوغاريتية، أو أرامية، أو حتى العربية بدون معرفة ممتازة باللغة، والسياق الذي كتبت فيه، فهو خيار عسير، نظراً لعدم توفر الأحرف الصوتية.

منذ ٥٢٠٠ سنة على الأقل، كان مبدأ التوثيق عن طريق كتابة لغة هو ظاهرة مكتسبة. فهل تم فعلاً إجراء إضافات جذرية عليها؟. من المؤكد بأن الأنظمة قد تطورت وتنوعت، واستخدمت تصريفات خاصة لاتعد لحالات خاصة. يبدو لنا اليوم، في عصر الحاسوب، ومعالجة النصوص بالإدخال والأنترنت بأن الكتابة في خطر، وأن المعلوماتية لم تكن لترى النور بدون الكتابة وتطوراتها، بما فيها علم الرياضيات، والتوثيق المزدوج. إننا نقتفي دائماً الطريق الذي فتحته لنا شعوب الشرق الأوسط، وذلك منذ عشرة آلاف عام.

مابعد الكتابة؟

قد نفهم من الصفحات السابقة، بأن الإجابة على هذا السؤال مستحيلة، ولنتصور ماذا سيخلف الكتابة: وسيعتبر ذلك تطوراً مساوياً لإبداعها وستكون قفزة كمية ونوعية أيضاً رائعة بالنسبة للوضع السابق، وإن كانت أحجية، فهل هي قادرة على التنبأ بالذي ستكون عليه تماماً تجربتها العقلية، مادمنا لانزال قريبين من إنسان (ليتراتوس أو كفسيس) الذي نقش يوماً على رقيم الخطوط الأولى للعلامات المسمارية، وهو لم يكن يقصد مطلقاً ما فرض علينا يوماً كل الحيره والدهشة، نحن أو أحفادنا.

تاريخ أعمال التنقيب الأثري في سورية

ع. البني

لم يشهد القرن التاسع عشر أعمال تنقيب أثرية في سورية إلا في النصف الثاني من ذلك القرن ومطلع القرن العشرين، ومنها أعمال أرنست ردينان في عمريت والحفريات البريطانية في جرابلس / كركميش والألمانية في زنجرلي شمال وتدمر وتل حلف. وكانت هذه الحفريات بالأساس لأسباب استراتيجية وسياسية.

حصر الانتداب الفرنسي الأعمال الأثرية بيد السلطة الفرنسية. وخلال تلك الفترة لم تزد أعمال التنقيب الأثرية الهامة عن ثلاثين، قامت بها بعثات فرنسية وأجنبية عموماً مع بعض المساعدين السوريين أحياناً. ومن أبرز أعمال التنقيب آنئذ ماتم في دورا أوروبس والمشرفة وحماه ورأس الشمرة وتل الحريري وسهل العمق وتل براك وكهوف يبرود ... الخ.

بعد استقلال سورية عام ١٩٤٦م، باشر الأمير جعفر الحسني أعمالاً في مدرج بصرى، ثم قام الدكتور سليم عبد الحق بالتنقيب في مدفن طاعي في تدمر. وقمنا اعتبارا من ١٩٥٥ وبصورة رئيسية مع الاستاذ نسيب صليبي بتنقيبات وطنية في عدد من المناطق السورية وبخاصة في تل الكزل، وجرت أعمال هامة في عين دارا وتل عشترة قام بها فيصل الصيرفي، ومن ثم علي أبو عساف. وساعد في بعض هذه الأعمال موريس دونان كما ساعد هنري دوكونتانسون في بعض الحفريات ماقبل التاريخية في منطقة دمشق.

ظهر قانون آثار جديد في ١٩٤٧م، وعدّل في ١٩٦٣م، وهو لايمنح البعثات الأجنبية أية آثار من مكتشفاتها إلا في أضيق الحدود وبشكل تشجيعي. ومع ذلك تواردت البعثات ورخصّ اعتباراً من عام ١٩٥٠م، العمل من جديد في رأس الشمرة وماري ومُنحت رخصٌ للرصافة وتل الصالحية بغوطة دمشق وتدمر وتل رفعت وتل الفخيرية وتل سوكاس وأفامية وتل مرديخ والمدن الميتة في الشمال وكهوف يبرود.

وكان أول مشاريع الإنقاذ عند تشييد سد الثورة على الفرات. وصدر تشريع جديد يسمح بإعطاء البعثات الأثرية نصف المكرر. ونمت في أواخر الستينات ومطالع السبعينات حملة تنقيب وطنية ودولية لم يعرف لها مثيل وأنقذت كل المواقع المهددة تقريباً. ومازالت بعض البعثات مستمرة حتى الآن في المناطق المحيطة التي لم تغمر. ومن أشهر المواقع التي أنقذت وأصبح لها شهرة عالمية تل المريبط ومسكنة وتل الفري وتل حبوبة. وجلبت حملة انقاذ مواقع الفرات المذكورة بعثات جديدة شملت كل البلاد تقريباً وبلغ عددها الاجمالي أحياناً مع بعثات الإنقاذ حوالي الأربعين.

وانتشرت أعمال المسح بشكل واسع وبخاصة عند مشاريع الانقاذ التي تجددت في منطقة الخابور حيث قام مشروع سد الخابور (سد الباسل حالياً)، ومشروع سدود الحسكة. وأنقذت وماتزال تنقذكل المواقع المهددة تقريباً. وتعمل الآن في الانقاذ سبع عشرة بعثة في منطقة غمر سد تشرين. ويمكن أن نضع في مشاريع الانقاذ أعمال التنقيب المشتركة السورية الفرنسية في ابن هاني منذ عشرين عاماً. وأنجزت في ميدان التنقيب في مواقع ماقبل التاريخ في السنوات الأخيرة أعمال كثيرة وهامة نذكر منها ماتم في بادية تدمر (حوض الكوم). وننوه بخاصة باكتشاف هيكل الطفل النياندرتالي في كهف الديديرية على يد بعثة سورية يابانية يديرها الدكتور سلطان محيسن، والدكتور تاكيرو أكازاوا. وان بعض المكتشفات في مجال ماقبل التاريخ في سورية سوف تغير وتقلب المعروف في هذا المجال رأساً على عقب.

وبدأت أعمال تنقيب وطنية جديدة في التسعينات موزعة على عدد من المحافظات من أبرزها تل سيانو (د. البني و د.المقدسي) والمشرفة (د. المقدسي) وسكا (أ. طرقجي) وتل بويض (د. أ. سليمان). كما اتسعت أعمال التنقيب المشتركة في أكثر المحافظات. ومن أشهر المواقع التي يجري فيها العمل المشترك ابن هاني وتل بيدر وجرف الأحمر وبصرى ودورا أوروبس ومواقع حوضة الكوم. ويسهم في هذه الأعمال د. محيسن ود. البني ود. سليمان، أ. م

قدور، ود. شعث، وأ.خ أسعد ، وأ ب. جاموس. ويتم التعاون مع المعاهد الأثرية القيمة في البلاد في أعمال مشتركة كثيرة.
والآن تتم في سورية أعمال تنقيب سنوية لاتقل عن المائة بين سورية ومشتركة وأجنبية وهذا الرقم بالنسبة لمساحة البلاد وعدد سكانها يعتبر رقماً قياسياً في النشاط الأثري والتنقيبي بخاصة. وهو يتناسب مع غنى الأرض العربية السورية وعراقة الحضارة التي تمت على أرضها الطيبة.

الأبحاث الأثرية الراهنة في الجزيرة السورية

أ. المحمود

الأبحاث الأثرية الراهنة في الجزيرة السورية الواقعة بين وادي البليخ والحدود السورية العراقية شملت تنقيبات أثرية ومسحاً أثرياً ودراسات وأسبار ساهمت فيها بعثات أثرية عالمية مختلفة بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف.

تركزت أغلبية هذه الأبحاث في مواقع تعود إلى الألف الثالثة ق.م. مثل تل ليلان – تل بديري – تل بري – تل الحميدي – تل البيدر – تل عتيج – رد شقرة – تل براك تل خنيدج – تل أبو حجيرة – تل خزنة – تل محمد ذياب – تل موزان – تل خويرة – تل البيعة – تل حمام التركمان – ومواقع تعود الى فترات تاريخية لاحقة مثل تل شيخ حمد – تل شيخ تتنير – تل البويض – تل عجاجة – ومدينة الفار.

وهناك أبحاث أخرى عالجت التطور في مراحل ماقبل التاريخ وحتى العصور المتأخرة مثل تل كشكشوك – تل صبي أبيض – تل مشنقة – تل أم قصير – تل الفيضة – تل زيادة – تل كوران – تل كرمه – تل الرفاي، وقد أختيرت مجموعة من المواقع بسبب الغمر نتيجة بناء سد جنوبي الحسكة. كذلك تهدف التنقيبات الى إجراء اختبارات بطرق حديثة لأعمال التنقيب حسب مظاهر التل وإجراء اختبارات على الهياكل العظمية، وكذلك تطورت الأبحاث في الجزيرة لتشمل المظاهر الطبيعية للمنطقة ودراسة المناخ من العصر الحجري ما قبل الفخاري المبكر في الألف الثامنة ق.م وإلى الألف الثانية ق.م. وقد أجريت أيضاً تحاليل للتربة والاحياء الدقيقة. ودراسة البيئة وطبقات المنطقة وذلك لتقديم براهين أولية للمظاهر الطبيعية والشروط المناخية. كذلك جرت أبحاث على بقايا عظام الحيوانات التي أعطتنا الصورة الأولى لعيش الحيوانات واقتصاد الجزيرة وعلاقة ذلك بتدجين الحيوانات، الى جانب الحيوانات البرية التي كانت تُصطاد في البادية الواسعة. وكذلك تربية الحيوانات حتى كونت مرحلة جديدة لمجتمعات تعتمد على الزراعة الحقلية وتربية المواشي كذلك قدمت بعض الدراسات معلومات تاريخية هامة منذ الألف السادسة ق.م وحتى القرن السادس والعشرين ق.م وتقسيمها إلى مرحلة أولى تبدأ بالاستيطان والاستقرار ومرحلة ثانية تدعم مواقع الاستيطان أو بناء أسوار حماية ضخمة ومرحلة ثالثة نشوء الامبراطوريات كالامبراطورية الأكادية التي أخذت تدير منطقة الجزيرة ومرحلة رابعة لفترة تدهور وتصحر وهجرة مفاجئة بدت لنا في أغلبية المواقع التي جرى التنقيب فيها بالجزيرة السورية.

وأدت التنقيبات الى اكتشاف وتحديد بعض المواقع الأثرية القديمة مثل تل موزان (الذي كان يعرف باسم «اوركيش»)، وتل ليلان (شبث انليل)، وتل عجاجة (شاد يكاني)، وتل شيخ حمد (دور كاتليمو)، وتل براك (ناغاروم)، وتل بري (كخت)، وتل البديري (دور آشور – كيتي – اشر) وتل البيعة «توتول»).

كذلك أدت أكتشافات ودراسة اللوحات المسمارية في تل البيدر التي تعود إلى فترة الأرشيف المكتشف في إبلا والتي تعتبر أولى اللوحات لتلك الفترة في منطقة شمال سورية إلى البرهنة على علاقة واضحة بين إبلا في الغرب وبلاد الرافدين.

مع الأمل بأن استمرارية التحاليل ستؤدي إلى تفسير هذه المعطيات، وسوف تسمح لنا لفهم أفضل لتاريخ المنطقة وتطورها الاجتماعي والاقتصادي.

المشهد الأثري في الجزيرة السورية

ط. ويلكنسون

تعريب: إ. سنديان

تقدم الجزيرة السورية مشهداً طبيعياً متأثراً بإجتماع عوامل ثقافية متعددة ، تأثرت بظروف التقادم والتراكم، لهذا السبب لاتتوفر لدينا اليوم صورة كاملة عن المشهد القديم، وإنما يقتصر ذلك على تسجيل متفاوت لمبانٍ نوعية كالأقنية أو الدروب وكسر فخارية متناثرة هنا وهناك، لها صلة بالأنشطة الزراعية القديمة (التسميد بمساعدة بقايا المواد العضوية)، ومعاصر عنب ومقالع حجرية ومناطق لاستخراج الجص أو الملح، وتكمل هذه المعطيات المواقع الأثرية كما أنها تزوّدنا بمعلومات هامة حول الإقتصاد القديم في هذه المنطقة. ترجع هذه المحفوظات إلى عصور ما قبل التاريخ وحتى الفترة الإسلامية القديمة أو الوسطى، ويظهر من خلالها أجزاء كبيرة من الجزيرة، وعلى وجه التحديد وادي الخابور والبليخ التي كانت مناطق زراعية مزدهرة تربطها الطرق، وتنتشر فيها قنوات الري والأبنية التي تدل على إقتصاد مزدهر، ومع أن هذا الإزدهار كان متفاوتاً، فقد زالت معالمه كلياً بسبب ظروف سياسية وبيئية.

الكتابة في الجزيرة السورية

ح.حمادة

إن التنقيبات الأخيرة التي جرت في منطقة الجزيرة السورية غيّرت كثيراً من المعطيات القديمة وخاصة تلك التي تشير إلى أن بدايات الحضارة والمدن قد ظهرت في جنوب بلاد الرافدين ثم انتشرت شمالاً.

أصبح الدراسون الآن يتحدثون عن أصل المدن في مناطق الزراعة البعلية وظهرت دراسات هامة:

The Origins of Cities in Dry-Farming Syria and Mesoptamia in the third Millennium B.C, Harvey Weiss, ed 1986.

كما ظهرت مراكز دينية هامة في أعالي الجزيرة مثل المعبد العالي في تل خزنة ومعابد تل براك (الرمادي ـ ومعبد العيون) ومعابد تلال خويرة ـ وموزان ـ وكشكوك وأبو حجيرة، وغيرها. وقد كان لهذه المراكز المدنية دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية، اذ أنها كانت تشرف على الصادرات والواردات وتوثق هذه العمليات بالتدوين والكتابة.

إن أكتشاف نظام الفيش (Tokens) في العديد من مواقع الجزيرة يمثل المرحلة الأولى من التوثيق، وهذا النظام كان شائعاً ومعروفاً على ضفاف الفرات (حبوبة كبيرة) وفي الجنوب (أوروك).

تلت هذه الفترة مرحلة انقطعت فيها الشواهد وأصبح الحديث عن أصل الكتابة وبداياتها في الجزيرة السورية نوع من التخمين.

ولكن اكتشاف وثائق تل بيدر مؤخراً جعلنا نعيد النظر فيما كتب سابقاً وبخاصة في تلك الدراسات التي ظهرت بعد اكتشاف وثائق إبلا.

مثل:

- **"Thought about EBLA", SMS 1:1, 1977, by Gelt.**
- **"EBLA and Kish Civilization", 1981, by Gelt.**

هذه الدراسات ربطت التقاليد اللغوية والكتابة الابلائية بتراث كيش الرافدي وهو ربط لانشك فيه، ولكن علينا أن ننظر الآن إلى وجود تراث أكثر شمولية امتد من غرب سورية إلى أعالي الجزيرة إلى منطقة كيش وديالي. وهذا التراث يستند على تقاليد لغوية محلية على صعيد النحو أو الصرف أو الأسماء.

لقد أكدت وثائق إبلا دائماً وجود مركز هام في أعالي الجزيرة هذا المركز هو «ناغار» التي تم التأكد منها في تل براك، وناغار مدينة كبيرة تاجرت مع ابلا بالدواب والحبوب وحصلت منها على المنسوجات والمعادن. وقد أظهرت وثائق تل بيدر بأن سيد ناغار كان يزور بلدة بيدر التي يبدو أنها كانت تابعة له وأنه من هذه المدينة كانت ترسل الدواب (الحمير والأتن) إلى مدينة إبلا.

ثم أن قوائم الموظفين والحصص التي كانت توزع عليهم والتي عثر عليها في موقع بيدر مثل: /T.2640/ تشير إلى وجود الكتبة /DUB-SAR/، وهذه الإشارة دليل واضح على شيوع هذه المهنة في منطقة الجزيرة ودليل على أن الكتابة عرفت في الجزيرة السورية قبل هذا التاريخ بعدة قرون.

أما وثائق الألف الثانية فهي أكثر وفرة في الجزيرة لأن ما تم الكشف عنه في شاغر بازار في الثلاثينات وما تم الكشف عنه في ليلان ـ شوبات انليل ـ في الثمانينات يشير بوضوح إلى غنى الجزيرة بالوثائق الكتابية خلال هذه الفترة.

ولكن على أية حال فإنه لايمكننا أن نتحدث عن الكتابة أو بداياتها في منطقة الجزيرة دون مزيد من التنقيب ومزيد من الشواهد.

ثمة شواهد أخرى أتت من تل الصبي الأبيض يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر ق.م، وشواهد آرامية وبابلية جديدة أتت من تل الشيخ حمد، لكن بالرغم من هذه الشواهد فإن هناك فترات انقطاع عديدة.

العصر الحجري الحديث في الجزيرة السورية

م. موليست
تعريب: ي. الكجك

لعبت سورية الشمالية، وبشكل خاص منطقة الجزيرة، بما فيها وادي الفرات، دوراً هاماً في ظهور المجتمعات الزراعية الأولى، وهي تشكل في الواقع واحدة من المناطق النادرة المتميزة في الشرق الأوسط. لقد وثّق تطور التغيرات الإجتماعية ـ الإقتصادية والتي تمثلها فترة النيوليتية، بسمتين أساسيتين: وهما النضج المبكر بالنسبة للمناطق المجاورة، والطابع الخاص والداخلي لتطور الجماعات ما قبل التاريخية، والذين تحولوا من صيادين ـ جامعي قوت إلى مزراعين ومربي حيوانات.

يشكل تحليل المواقع الأثرية الهامة في حوض الفرات، والبليخ والخابور، شواهد هامة على التوزع الجغرافي لمواقع السكنى، وعلى الإقتصاد القديم، وعلى التطور التقني.

لقد سمح التطور الذي جرى مابين ١٢٢٠ـ٧٢٠٠ق.م، بتتبع التغيرات بشكل تطوري، بدءاً من منشآت القرى المستقرة، مروراً بأولى التجارب الزراعية، إلى التقاليد الجديدة في إخضاع الأدوات الحجرية، وتنظيم مصادر العيش، وتأهيل أنواع حيوانية، أو ظهور تقنيات جديدة، وخاصة التي ترتبط منها بفنون النار (فخار، جص، .. إلخ).

لقد سمحت التغيرات بإظهار وتوطيد التحولات الإقتصادية والإجتماعية، ويعني ذلك ظهور مجتمعات زراعية وطيدة الأركان.

من القرية إلى المدينة
الجزيرة السورية في أواخر العصر الحجري الحديث
وحتى العصر الحجري النحاسي
(من الألف السادس إلى الألف الرابع قبل الميلاد)

پ. أكرمانس
تعريب: هـ. عمران

في بداية الألف السادس قبل الميلاد، هجرت مناطق كاملة من الجزيرة وعشرات القرى، وكان السبب على الأغلب تغيرات بيئية كبيرة، وبعد عدة قرون، عادت بعض المواقع للظهور وأدت لتغيرات واضحة في مجال الثقافة المادية والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي في القرى، وحوالي عام ٥٠٠٠ ق.م، تأثرت حضارة حلف المحلية بحضارة ما بين النهرين، وظهرت نماذج جديدة للمنازل وطقوس جنائزية، في حين بدأ صنع الخزف وفق نماذج معروفة بكميات صناعية، وخلال هذه الفترة المعروفة بالعبيد، تجمع السكان في سلسلة من المواقع المحددة، وبدأ ظهور أوائل التنظيم العمراني، واستمر الأمر على ما هو عليه خلال فترة الوركاء (أوروك)، حوالي عام ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ق.م، عندما ظهرت على طول الفرات المدن الأولى المنظمة التي تضم المعابد والأسوار، وتميزت باقتصاد مركزي، وبموظفين متخصصين، وبتنظيم طبقي، كما ظهرت الكتابة. وقد لعبت العلاقة مع المراكز العمرانية في بلاد ما بين النهرين الجنوبية دوراً هاماً، ثم حلت محلها سريعاً التطورات الثقافية ذات الأصول المستمدة من الجزيرة السورية نفسها.

الجزيرة السورية خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد

أ. سليمان

تبدو لنا الجزيرة السورية للوهلة الأولى وكأنها مستقلة حضارياً عن جنوب بلاد مابين النهرين وعن الأناضول وإيران وغرب نهر الفرات (حضارة سورية الشمالية). إلا أن البحث الدقيق يطلعنا على وجود علاقات حضارية فيما بينها وهذا مايفسر لنا الوحدة الحضارية لمنطقة الجزيرة، لا بل للبلاد العربية.

إن موقع الجزيرة الاستراتيجي الهام ودورها الحضاري الفعال ساعد على ازدهار ونشوء الدويلات في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد. مما أدى إلى تعاظم العلاقات فيما بينها (مناطق وادي البليخ والفرات). حيث كانت وماتزال صالحة للزراعة البعلية والمروية وتربية الماشية نظراً لمناخها وخصوبة أراضيها في زراعة الحبوب.

دلت نتائج التنقيبات الأثرية التي قامت بها البعثات الوطنية والأجنبية والمشتركة، على وجود سويات لحضارة فجر السلالات المبكرة أو عصر البرونز القديم أو العهود ماقبل صرغون. وإننا لنجد تلك السويات هي السويات الأولى التي تشكلت في بعض التلال: تل الميلبية، بديري، خنيدج، جسعة، نص تل، أبو حجيرة، قرمة.

توسعت الحفريات الأثرية في سورية، كما اكتسبت صيغة منهجية. مما أدى إلى تغيير المفهوم القديم حول دور سورية الحضاري القديم، إن التلال الأثرية التي تنتمي لحضارة فجر السلالات كثيرة العدد وأهمها: تل براك (ناغار) تل ليلان، موزان، (دركيش، الميلبية، بديري، خنيدج، عتيج، رقاي، رد شقرة، ملا مطر، قرمة، أبو حفور، جسعة، أبو حجيرة، شكشوك، خزنة). هذه التلال وغيرها تعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. ونعتبر مدينة ناغار (براك) أكبر وأهم مدن الجزيرة لكونها العاصمة الكبرى للجزيرة في منصف الألف الثالث قبل الميلاد. كما يُعد تل بيدر من أهم المواقع التي قدمت أكبر أرشيف في جناحه الاداري التابع للقصر بينما العاصمة الكبرى لفترة ما بعد العصر الآكادي أوركيش (موزان) أكبر اكتشاف حققته التنقيبات الأثرية الحالية. وتأتي أهمية أرشيف بيدر لاحتوائه على أقدم الرقم المكتشفة في الجزيرة ويؤلف مع رقم ماري وإيبلا وحدة كتابية قديمة. ولا يمكن لنا عزل مواقع (دول) فجر السلالات الباكرة عن التأثيرات الحضارية الأخرى. فنجد أن المنطقة تقع على مفترق الطرق التجارية الدولية، التي كانت تربط الغرب بالشرق والجنوب بالشمال.

إن الاكتشافات العديدة التي تمت في مواقع الاستيطان، سمحت لنا بدراسة سوياتها والوقوف على المدى الذي وصلت إليه هذه المدن والمراحل التاريخية التي مرت بها.

لقد أعطتنا التنقيبات الأثرية في مواقع رد شقرة وكشكشوك والميلبية فكرة عن التصميم المعماري لمساكن فجر السلالات الباكرة. حيث كانت البيوت في المرحلة المبكرة كبيرة وذات غرفة واحدة تحتوي على دعامات ضخمة تنتهي بقوس تحمل بعض الدعامات أضيق وشاقولية كما الحال في الأصل كشكشوك III المرحلة العاشرة والميلبية، وتميزت بيوت المرحلة الثالثة بتعدد غرفها، إذ تألفت من غرفتين إلى أربع مع دعامات وجدران أقل سماكة، ولانجد أي دلائل على وجود فسحات سماوية داخلية، في حين تظهر بعض العناصر المنزلية (كالتنور) التي حشرت بين البيوت. كما الحال في بيوت كشكشوك التي تنتهي إلى عصر نينوى (O) المرحلة الرابعة.

إن المرحلة الرابعة من انشاء المستوطنة المتكونة من مساكن ترتبط فيما بينها بطرقات، ويمكن ملاحظة تلك العناصر المعمارية في المواقع التالية: رد شقرة، بديري، جسعة، أبو حجيرة والميلبية، التي تنفرد عن بقية المستوطنات من حيث تنظيم المخطط للمدينة القديمة. أما مستوطنة رقاي فلقد وضع لها أسس تنظيمية في إنشاء

الجدار التحصيني كما أنشئت الطرقات على شكل خيوط عنكبوت منها الطرق الرئيسية والثانوية.

تجلت العمارة القديمة في معابد اوروك ومدينة حبوبة، إلا أنه وبعد أكتشاف معابد وقصور تعود إلى العصور المبكرة، نجد أن العمارة السورية شكلت فناً قائماً بحد ذاته.

إن المنشآت الضخمة التي أكتشفت في تلال براك ـ بيدر ـ خزنة ـ كشكشوك ـ أبو حجيرة ـ رقاي ـ ميلبية، لا تقل أهمية عن المكتشفات المعمارية في جنوب وغرب بلاد ما بين النهرين وبخاصة ماري وإيلا والبيعة، تل البنات على الفرات.

تتميز عمارة تل بيدر (القصر) باستعمال الأعمدة المربعة وباستقامة الواجهة الجدارية وخلو القصر من الجدار المحيط به، كما هو الحال في قصور ومعابد اوروك وقصور فجر السلالات في جنوب بلاد ما بين النهرين، ويطلق على هذا الجدار السور المقدس.

لقد حدث تغيير أساسي في فن العمارة من المخطط الجزئي في موقع أبو حجيرة وعتيج والجديدة ورد شقرة وأبو حفور إلى المخطط الكلي للبناء في رقاي ـ بيدر.

لقد شيد قصر بيدر وفق مخطط مسبق يتألف من (المدخل مع الفسحة السماوية وغرفة الاستقبال ـ قاعة العرش) تقع هذه الغرف الثلاث على خط مستقيم كما هو الحال في القصور الرافدية وتلتف حول هذه القاعات غرف أصغر حجماً. بينما ترى كتلة معمارية أخرى تتصل مع القصر لتؤلف وحدة معمارية متكاملة. هذا يعني أن القصر لعب دوراً سياسياً وإدارياً، وذلك لتواجد أقدم أرشيف في الكتلة المعمارية المؤلفة من عدة غرف.

ويتزامن قصر بيدر مع قصور تل براك (ناغار) وقصر ماري (ماقبل صرغون) وقصر إيلا (G).

فمعبد العيون في تل براك الذي بني حسب مخطط مختلف عن النموذج الثلاثي المتبع في بناء معابد فترة أوروك. يرجع بناء المعبد إلى نهاية عصر أوروك وبداية عصر جديد يحمل معه ميزات معمارية جديدة. وتحول نحو نشوء الدولة.

تتجلى المعابد المكتشفة أكثر ماتتجلى في المعبد البيضوي العالي المسور في موقع تل خزنة (I)، الذي يشارك معبد خفاجة في الازدواجية الجدار الخارجي، بينما يختلف المعبد البيضوي في موقع كشكشوك بخلوه من الجدار المحيط به، الذي يرجع بناء المعابد البيضوية الى فجر السلالات الأولى والثانية.

لكن المعبد الأحادي الغرفة المكتشف في كشكشوك ورقاي، ينتميان إلى عصر نينوى (O) أي فجر السلالات الثالثة. بينما نجد نموذج جديد من العمارة الدينية التي تتمثل في معبد الأقواس في تل أبو حجيرة. تأخذ الأقواس شكلاً دائرياً يحمل السقف. ولايختلف الأمر عن البناء المخصص لكهنة المعبد والكائن الى الشمال منه. ويتألف من ثلاث غرف، تعدد الأقواس بداخلها وجدرانها أكثر سماكة من جدران المعبد.

نجد التأثيرات الخارجية واقعة ما بين شمال وجنوب بلاد ما بين النهرين في موقع خزنة وكشكشوك وبين خفاجة لوجود معبد بيضوي الشكل في تلك المواقع.

ومن جهة ثانية يشير بناء المعبد الاحادي الغرفة ومعبد الأقواس تشير إلى استقلالية المنطقة التي أخذت تبرز كمركز للحياة السياسية والفكرية. حيث استبدلت المعابد البيضوية والمدن المسورة بقصور ومعابد مربعة وبجدران واجهات مستقيمة وخالية من الزخارف.

إن الرواق المرتبط مع قاعة الاستقبال قاعة العرش من الأنظمة المعمارية القديمة التي يطلق عليها بعصر ماقبل صرغون، وهي تتمثل في قصر كيش وماري واشتونا.

إن قاعة الاستقبال الفسيحة والرواق المؤدي اليها وقاعة العرش لانجدها في العمارة الأكادية، فإذا ما قارنا قصر بيدر وماري وإيلا مع قصر نارام سين، يبدو الفارق واضحاً بين هاتين العمارتين. فقصر نارام سين أكثر انغلاقاً من حيث التصميم، ويشبه القلاع.

كانت مدينة دور كاتليمو (تل الشيخ حمد) تشكل مركزاً إدارياً أساسياً في بادية الجزيرة، وتصور الكتابات المكتشفة فيها الوضع الاداري والاقتصادي في المنطقة خلال القرن الثالث عشر ق.م.

لاتتوافر لدينا وثائق وافية عن تاريخ الجزيرة في القرنين التاليين، ولكن الراجح هو أنها تأثرت كسائر المناطق السورية بالاضطراب الذي خلفه غزو «شعوب البحر» في حوالي ١٢٠٠ق.م، كما شهدت بدءاً من أواخر القرن الثاني عشر ق.م تغلغل القبائل الآرامية إليها ـ على غرار التغلغل الأموري في مطلع الألف الثاني ق.م ـ، وقد استطاع الآراميون إنشاء ممالك مستقلة في معظم مناطقها خلال مطلع الألف الأول ق.م.

الجزيرة السورية في الألف الثاني ق.م

ف. إسماعيل

انتقلت قبائل أمورية من وادي الفرات الى سهول الجزيرة في مطلع الألف الثاني ق.م، وتابعت بعضها السير الى مناطق آشور. وتمكن الأموري شمشي أدد الأول (١٨٠٨ - ١٧٧٦ ق.م) من اعتلاء عرش مدينة آشور، وجعلها مركزاً لإمبراطورية شكلت الجزيرة العليا جزءاً أساسياً منها.

وتفيد نصوص الأرشيف الملكي في ماري (تل الحريري) بأنه اتخذ مدينة شخنا (تل ليلان) عاصمة ثانية له، وسماها (شبت إنليل). كما عين ابنه يسمخ أدد على عرش ماري، وكلف ابنه إشمي دجن بمراقبة مناطق دجلة. وصارت إمبراطوريته قوة أساسية في المنطقة.

لم يستطع ابناه - بعد موته - الحفاظ على وحدة الامبراطورية، فاستعاد زيمري ليم عرش ماري (١٧٧٥ - ١٧٦٢/١٧٦١ ق.م)، وظهرت في الجزيرة ممالك صغيرة يحكمها حكام خاضعون لسيادة ماري، مثل: شبت إنليل، كخت، إيلان صورا...

تعرضت الجزيرة خلال حكم زيمري ليم لحملات حكام إشنونا والعيلاميين والكوتيين، وقد أدت الى احتلال مؤقت لبعض أجزائها، واستمرت سيادة ماري عليها.

احتل حمورابي ملك بابل مدينة ماري ودمرها(١٧٦٢/ ١٧٦١ق.م)، وضم المنطقة الى مملكته. وكانت مملكة آبوم - ومركزها شبت إنليل - أبرز ممالك الجزيرة آنذاك حتى دمارها في ١٧٢٨ق.م.

ظهرت في ترقا (تل العشارة) مملكة خانا (حوالي ١٧٢٥ - ١٦٠٠ق.م)، ولكن النصوص المكتشفة فيها لاتقدم معلومات مفيدة عن تاريخ الجزيرة. وفي أواخر القرن السادس عشر ق.م شكّل الحوريون المقيمون في الجزيرة منذ النصف الثاني من الألف الثالث ق.م مع الميتانيين القادمين من المناطق الجبلة الشرقية مملكة ميتاني - وعاصمتها وشوكاني (تل الفخيرية؟)، وقد شمل نفوذها كامل الجزيرة السورية.

لقد تحالف ملوكها مع المصريين لدرء الخطر الحثي، وتصور رسائل تل العمارنة بمصر العلاقات بين القوى الثلاث (المصريون، الميتانيون، الحثيون). إن ظهور صراعات داخل البلاط الميتاني أدى الى تغلغل الحثيين في مناطقهم، كما استطاع الآشوريون التحرر من سيادتهم عليهم، بل قضوا على مملكتهم المفككة في النصف الاول من القرن الثالث عشر ق.م، وسيطروا على الجزيرة، وقسّموها الى مقاطعات يحكمها حكام محليون موالون لهم، ويلتزمون بدفع الجزية لهم.

كانت مدينة دور كاتليمو (تل الشيخ حمد) تشكل مركزاً إدارياً أساسياً في بادية الجزيرة، وتصور الكتابات المكتشفة فيها الوضع الاداري والاقتصادي في المنطقة خلال القرن الثالث عشر ق.م.

لاتتوافر لدينا وثائق وافية عن تاريخ الجزيرة في القرنين التاليين، ولكن الراجح هو أنها تأثرت كسائر المناطق السورية بالاضطراب الذي خلفه غزو «شعوب البحر» في حوالي ١٢٠٠ق.م، كما شهدت بدءاً من أواخر القرن الثاني عشر ق.م تغلغل القبائل الآرامية إليها - على غرار التغلغل الأموري في مطلع الألف الثاني ق.م -، وقد استطاع الآراميون إنشاء ممالك مستقلة في معظم مناطقها خلال مطلع الألف الأول ق.م.

علاقة الجزيرة مع بقية أجزاء سورية في عصر البرونز الوسيط

أ. طرقجي

لم تكن الجزيرة السورية في يوم من الأيام بعيدة عن مجرى الأحداث والتفاعلات السياسية والحضارية التي عاشها الهلال الخصيب في عصر البرونز. ولم يشكل الفرات يوماً حداً فاصلاً للتبادل التجاري والثقافي بين ضفتيه.

ومع البدء في استقرار القبائل الأمورية وتأسيس إماراتهم في المنطقة في مطالع الألف الثاني ق.م. ظهرت الممالك الأمورية كقوة سياسية فاعلة، أخذت تتنافس فيما بينها على السلطة والنفوذ، كان أشهرها ممالك ماري، آشور، بابل ، إبلا ، كركميش، يمحاض، وقطنة وغيرها.

وعلى هذا فإن التوازنات السياسية بين الممالك القوية، قد شهدت صدامات عسكرية ومنافسات تجارية، أدت إلى إيجاد التحالفات وإقامة العلاقات من أجل السيطرة على التجارة أو بسط النفوذ، وتأمين الحماية الذاتية للمالك. ولم تكن لها علاقات جيدة مع بعضها في أكثر الأحيان. ومع ذلك فقد شهدت البلاد تطوراً حضارياً خلاقاً في كافة المجالات، ارتكز على التقاليد الفنية الموروثة، وامتاز بابتكاراتٍ كثيرةٍ في مجال العمارة والفنون المختلفة.

الجزيرة السورية في العصور الآشورية الوسيطة وفي الألف الأول قبل الميلاد

هـ. كونه
تعريب: غ. الحسين

خسر توشراتا ملك الميتانيين معركة نحو منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ضد سوبلوليوما الأول ملك الحثيين، وهكذا فقد السيطرة على منطقة الجزيرة. وفي العهد نفسه تحررت المملكة الآشورية من الوصاية الميتانية، وإبان العصر الآشوري الوسيط، في ظل حكم الملك آشور أوباليط الأول، وطدت دعائمها.

إن التوسع الآشوري نحو الشرق، الذي تمت متابعته حينئذ، اتجه نحو ما خلفه الحثيين من الدولة الميتانية، وهو مملكة الهانيغالباط، التي كانت تمتد بين منبع كل من نهري الخابور والفرات في الشمال الغربي من الجزيرة، مما جعل منها المنطقة الأكثر خصوبة آنذاك. وقد حدث هذا الغزو على مراحل ولكنه لم ينتهِ الا قرابة نهاية الألف الثالث عشر قبل الميلاد تحت إمرة الملك الآشوري نينورتا توكولتي الأول.

كانت آشور العاصمة بمثابة القلب للملكة الآشورية، وكانت تقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة وعلى حدود الجزيرة الشرقية التابعة للملكة الآشورية، التي ربما كانت تزاول فيها الزراعة البعلية، حينئذ شرع الآشوريون بالسيطرة على المنطقة التي كان يستوطنها البدو أساساً، باستثناء بعض الواحات النهرية، ولأسباب مناخية.

لكن بلوغ هدف السيطرة على المنطقة كان من الصعب، لأن الآشوريين لم يقاوموا دولة منظمة، بل مجموعة غير متجانسة من القبائل البدوية، التي انتمى إليها فيما بعد قادمون جدد وهم القبائل الآرامية. فيما كانت المجابهة مع هذه القبائل الجديدة مشهودة سابقاً خلال حكم الملك حدد ـ نيراري الأول، ويبدو أنه في نفس هذا العهد بدأ تطور الوسط الإقليمي لمنطقة دور ـ كاتليمو في الوادي الأدنى للخابور، حيث ارتبطت هذه المدينة بآشور عبر طريق مباشر اشتمل على عدة محطات وسط السهوب.

بحسب الأرشيف المكتشف في إقليم دور ـ كاتليمو ذاك، والذي يدعى اليوم تل شيخ حمد، ما بين الأعوام ١٩٧٨ و١٩٨٣م، فإن هذه المدينة لم تكن مقراً لحاكم آشوري فقط (كخمس مراكز أخرى موثقة بالنصوص)، ولكنها تبدو أنها تمتعت بوضع ذو شأن عظيم، حيث كان يقيم فيها موظفٌ ذو مرتبة عالية من الحكومة المركزية، هو وزير مسؤول عن كل الأمور المتعلقة بتنظيم ومراقبة الممتلكات الآشورية الجديدة في الغرب، وتذكر نصوص اكتشفت حديثاً في تل خويرة، وتل صبي أبيض، موظفين تابعين لوزير من دور ـ كاتليمو.

نستطيع أن نستخلص من ذلك أن المملكة الآشورية في العهد الوسيط كانت تمارس في القرن الثالث عشر سيطرة إقليمية على الجزيرة، بينما بقيت منطقة أعالي الفرات تحت السيطرة الحثية، ومنطقة الفرات الأوسط تحت سلطة الآراميين.

لقد بقي هذا النظام الإقليمي متماسكاً لفترة ما بعد وفاة توكولتي ـ نينورتا الأول، رغم أن الحكومة المركزية قد تعرضت للضعف قبل أن تنهار في لحظة ما تزال مجهولة حتى الآن، في حين عاود توسع السيطرة الآشورية على الجزيرة أولاً تحت إمرة تكلات ـ فلاصر الأول (١١١٤ـ١٠٧٦ق.م)، لكن يبدو جلياً أن المناطق الغربية بين نهر الفرات ومنابع نهر الخابور قد فُقدت، وذلك لأنه، بعد حكم آشور بيل كالا (١٠٥٠ـ٩٣٠ق.م) وبعد ما أصاب السلطة المركزية من ضعف جديد، تقلصت المنطقة التي تحكمها «بلاد آشور» ولم تعد تشتمل على أكثر من منطقة الوادي الأدنى لنهر الخابور. لقد حكم هذه المنطقة حينئذ عدد من السادة المحليين، كانوا على الأرجح حكاماً سابقين ثم استقلوا الى حد كبير، وقد تميزوا بولائهم لدولة آشور، في وقت تأسست ولايات

آرامية صغيرة في أعالي الخابور وفي منطقة إلتقائه مع نهر الفرات، ولقد أدت بالتأكيد فترات الجفاف الطويلة لإضعاف الحكومة المركزية الآشورية – ولو جزئياً – بين الأعوام ١٢٠٠ و٩٣٠ق.م.

لقد بدأت نهضة السلطة الآشورية مع آشوردان الثاني (٩٣٢–٩١٠ق.م)، الذي استطاع الاستفادة من المحاصيل الغنية، وشرع بإصلاح النظام الإداري والعسكري، كما استطاع خلفاؤه، حدد – نيراري الثاني، توكولتي – نينورتا الثاني وآشور – ناصر بال الثاني، إيلاء الاهتمام من جديد بالغرب وبسط نفوذهم على الفرات الأوسط وعلى الوادي الأدنى من الخابور.

لقد استطاع سلمناصر الثالث في عام ٨٥٦ غزو الدولة الآرامية (بيت عديني) وعاصمتها تل برسيب، وبذلك استعادت بلاد آشور المناطق التي سبق أن وصلت اليها في القرن الثالث عشر. وتحققت السيطرة الاقليمية على كامل الجزيرة في نهاية القرن التاسع، حين تحولت الدول الآرامية الى أقاليم مثل بيت – بحياني عام ٨٠٨ق.م.، كما تأسس إقليمان قويان الأول إقليم رازبا في الجزيرة الشرقية والثاني إقليم تورتان في الغرب، وحكم كلا الإقليمين قائدان عظيمان.

لقد انضوت الجزيرة تحت حكم حدد – نيراري الثالث (٨٠٩–٧٨٢ق.م)، فيتضح من المسلة المكتشفة في تل ريمة (مدينة زماهو القديمة) أن الملك كان يتفاخر بأنه أسس ٣١ منشأة. وهذا التطور مثبت أثرياً من منطقة وادي عجيج. أصبحت الجزيرة حينئذ تابعة للمناطق الزراعية في المملكة الآشورية، حيث تقع مراكزها الرئيسية في منطقة مناخها مؤاتٍ على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة، إلى الشمال من العاصمة آشور. وكانت تجتاز طريق ملكية تخص (ساران شاري) الجزء الشمالي من الجزيرة. كما نعلم أنه في القرن السابع ربط فرع من هذه الطريق ويعز – كاتليمو بالوادي الأدنى لنهر الخابور.

لقد شهدت الجزيرة تطوراً زراعياً واستراتيجياً لم تبلغه في أي عهد آخر في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وذلك بفضل إقامة منشآت جديدة والبدء بالزراعة، بالإضافة الى شق الطرق في العهد الآشوري الحديث، وقد استفاد الذين غزوا الإمبراطورية الآشورية من هذا التطور، وبشكل رئيسي الملوك البابليون. بدأت الجزيرة تفقد أهميتها في عهود الممالك الفارسية والأخمينية والأرساسية، وذلك بسبب وجود المراكز الرئيسية للحكومة في الشرق. ويلاحظ، ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد، نمو جديد للمنشآت في المنطقة ناجم عن الوضع السياسي وعن إقامة الحدود بين الأملاك البارثية (الأرساسية) والرومانية.

الجزيرة السورية في العصور ما بعد الآشورية: من الإمبراطورية البابلية الحديثة إلى الإمبراطوريات الرومانية والبارثية

أ. كورت

تعريب: هـ. عمران

١ ـ لمحة تاريخية:

من المرجح أن تكون الجزيرة السورية قد تبعت للإمبراطورية البابلية الحديثة في الفترة التي تلت عام ٦١٢ـ٦١٠ق.م وحتى سقوط بابل تحت سيطرة قورش Cyrus، وتم ضمها إلى الإمبراطورية البابلية الأخمينية كجزء من المقاطعة البابلية. وخلال غزوته لبلاد فارس، أصبح الإسكندر المقدوني (٣٣٦ـ ٣٢٣ق.م) الحاكم الجديد لبلاد مابين النهرين، ولم يلبث سلوقس الذي كان أحد قادة الإسكندر أن ضمها إلى مملكته فيما بعد، وقد بقيت هذه المنطقة تحت السيطرة السلوقية حتى الغزو البارثي (١٢٦ق.م)، وإبان السلطة البارثية حتى بسط سبتموس سيفروس سلطته نهائياً من روما في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، ووصل حتى نصيبين Nisibis وسنجار ودورا أوروبوس، وقد ساعد موقع المنطقة الحدودي بين إمبراطوريتين على تمتعها من حين لآخر بشيء من الحكم الذاتي، الذي دام لاسيما في فترة الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين من القرن الرابع وحتى القرن السابع الميلادي.

٢ ـ المصادر التاريخية:

لايوجد سوى القليل من المصادر التاريخية التي تسمح بدراسة تاريخ الجزيرة السورية خلال هذه الفترة التي تمتد حتى الألف عام. وخلال التنقيبات، فقد تم الحصول على أغلب المعلومات من الحضر ودورا أوروبوس التي اكتشف فيها كمية كبيرة من أوراق البردي (البارثية والرومانية)، وقد ساعدت هذه الإكتشافات على توضيح الحالتين الإجتماعية والسياسية والتقسيمات الريفية في المنطقة، ويسمح المسح الأثري للمنطقة الشمالية الشرقية بالافتراض أن بنية التقسيمات قد تعرضت للقليل من التغيرات التي يمكن التنبؤ بها بما فيها السياسية العنيفة، كما يضاف إلى هذه المعطيات، بعض الرقم المسمارية من الفترة البابلية الحديثة، وبعض التلميحات في النصوص البابلية، والكلاسيكية الأخرى وبعض الكتابات النادرة، وهي تسمح جميعها بتصور الواقع التاريخي.

٣ ـ المدن والمستعمرات:

على إثر سقوط الإمبراطورية الآشورية بشكل حتمي، حصلت بعض التغيرات المهمة رغم استمرار فترات بارزة خلالها. وقد أظهرت المكتشفات الأثرية أن تل برسيب قد استمر قائماً حتى القرن الرابع ق.م، وأصبحت مدينة Thapsaque (قلعة الدبس) ملتقى طرق هام سيما بوجود جسرها على الفرات ومينائها النهري في الفترة الأخمينية، حتى استبدلت عند تأسيس مدينة زوغما السلوقية (سلوقية ـ أفاميا) حوالي عام ٣٠٠م، ويبدو أن كركميش لم تستمر بالبقاء بعد حروب أواخر القرن السابع رغم أنه قد تم وضع حامية فارسية صغيرة على بعد حوالي ٢٧كم إلى الجنوب والجنوب الغربي في منطقة Deve Hüyük لحراسة الممر إلى النهر، وأصبحت كركميش نفسها مستعمرة مقدونية صغيرة تتبع لـ Europos إبان الحكم السلوقي.

بقيت بعض المواقع القديمة نابضة بالحياة في المنطقة الواقعة بين الضفة الشرقية للفرات وقلب آشور، في الوقت الذي تراجعت فيه مواقع أخرى أو صَغُرَ حجمها، كما أُنشئت مواقع جديدة استجابة

لضرورات عسكرية وتجارية، فقد استمر موقع دور كاتليمو على الخابور الأدنى وغوزانا Guzana على الخابور الأعلى حتى الفترة البابلية الحديثة، ورغم غموض تاريخهما، إلا أننا نعرف بوجود مواقع إقليمية جديدة في هذه الرقعة من الأرض خلال الفترة البارثية (Gauzanitis; (T) Ingène)، فقد تم العثور في تل بيدر على طبقة استيطان هلنستية وبارثية، وإذا كنا لانستطيع أن نحدد بدقة تاريخ تأسيس واحة الحضر Hatra شمال غرب آشور، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أنها أصبحت ملتقى مزدهراً للقوافل خلال الفترة البارثية، وإلى الشمال منها، أصبحت سنجارا (سنجار) عام ١٩٠م الحد الشرقي الأبعد الذي وصلته السيادة الرومانية، وعلى طول دجلة بقيت آشور ونينوى مدناً مسكونة، كما عرفت آشور فترة ازدهار خلال الحكم البارثي.

أنشأ سلوقس الأول مدينة دورا أوروبوس في أعالي مدينة ماري القديمة، فأصبحت مركزاً على طريق مهمة، ونقطة سيطرة على النهر حتى دمّرها الساسانيون عام ٢٥٠م، أما مدينة نصيبين Nisibis الواقعة على الطريق الرئيسة القادمة من الأناضول، فقد بقيت تحت اسم أنطاكية المقدونية (Antiochia Mygdoniae)، ولم تلبث أن تحولت إلى مركز هام للكنيسة السريانية، وإلى الغرب، قام ملك البابليين نابونيد Nabonide (٥٥٦-٥٣٩ق.م) بترميم مدينة حران الواقعة على طريق تجارية قديمة، والتي كانت قد دمرت خلال الحرب الأشورية البابلية، وقد استمرت هذه المدينة كمركز تجاري وديني لإله القمر، وعرفها الرومان باسم Carrhae، وهو المكان الذي هزمت فيه روما هزيمة منكرة أمام البارثيين عام ٥٣ق.م، وتقع المدينة على بعد حوالي ٤٠كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة أورفا Urfa الحديثة والمعروفة قديماً باسم أنطاكية - كاليروه Antioche-Callirhoé التي أسسها سلوقس الأول والتي اشتهرت تحت اسم الرها، وكانت عاصمة لمملكة صغيرة هي Osrhoène، ومركزاً للحياة الثقافية السريانية.

٤ - الطرق:

تسمح معرفتنا المستقاة من المصادر المتفرقة المتوفرة بين أيدينا بأن نعتقد بوجود طريقين رئيستين تم استخدامهما لعبور منطقة الجزيرة خلال جميع الفترات التاريخية، تنطلق الأولى من الفرات وتعبر دجلة قرب نينوى، وقد اعتبرت أسهل من الناحية المناخية، وأكثر وفرة بالمؤن، أما الثانية فكانت على طول الضفة اليسرى للفرات، وكانت بالتأكيد أشق بالنسبة لجيش مثقل بالعتاد. في الواقع ومع تناقص المناطق المزروعة فيها، أصبح من الصعوبة بمكان الخوض عند الضفة، كما لوحظ وجود بعض البدو الذين كانوا يطلبون النقود من المسافرين للسماح لهم بالمرور بأمان.

لقد تغيرت البنية التحتية للطرق خلال الزمن، فقد أهملت الطريق الشمالية مثلاً عندما انتقل مركز النشاط السياسي في بلاد مابين النهرين إلى الجنوب، وعندما تمت تقوية الحدود بين روما والبارثيين، فقد وصف الكاتب البارثي إيزودور دوكاراكس الطريق الرئيسية التي ربطت زوغما بسلوقية دجلة في بداية القرن الأول الميلادي، ويبدو من وصفه أنها كانت تمتد من الفرات وحتى قرب أورفا Anthémuse ثم تتجه جنوباً على طول البليخ حتى Ichnae وNicéphorium، وتستمر على طول نهر الفرات حتى دورا أوروبوس قبل وصولها إلى بابل، كما لوحظ وبحسب المصادر التي تضمنت ذكر وجود طرق أخرى، فمملكة الحضر الخاضعة للبارثيين قد وجدت على طريق القوافل التي ربطتها بالفرات الأوسط وبعض المدن التجارية الأخرى كتدمر، وتظهر وثيقة آرامية من نهاية القرن الخامس الميلادي وجود سلسلة من المحطات المجهزة على طريق تنطلق من بابل على طول الضفة الشرقية لدجلة وتقطعها شمال أربيل Arbéle وتستمر عبر الجزيرة إلى الفرات الأوسط كما يعتقد، وأخيراً يصف هيرودوت «الطريق الملكية» للفرس بين Sardes وسوسا، وتدل معلوماتنا السابقة أن هذه الطريق كانت تتجه جنوباً بعد تركيا وتمر عبر نصيبين وعبر دجلة ومدينة أربيل Arbéles.

مشروع تل بيدر

م. لوبو + أ. سليمان

تعريب: ب. زهدي

تلقى مارك لوبو في ربيع عام ١٩٩١ مقترحات من عدة زملاء بهدف تشكيل بعثة أثرية للتنقيب في موقع تل بيدر. وفي صيف نفس العام تشكلت لجنة .E.E.S (التنقيبات الأوروبية في سورية) معتمدة على دعم بلجيكي من (الجامعة الحرة في بروكسل) ويتولى مسؤوليته فيليب تالون، ودعم فرنسي من (جامعة شارل ديغول ـ ليل الثالثة)، وتتولى مسؤوليته دومنيك باراير المديرة العلمية المشاركة، ودعم ألماني، فقد انضمت في أيلول عام ١٩٩١ ـ وإن يكن مبكراً جداً ـ جامعة لوڤين الكاثوليكية بدورها الى المشروع ممثلة بـ (كارل ڤان ليربرج).

وفي خريف عام ١٩٩١ تم إجراء أعمال الأسبار الأولى في تل بيدر.

وفي ربيع عام ١٩٩٢ أسس المسؤولون عن الجامعات الداعمة للمشروع المركز الأوروبي لدراسات بلاد مابين النهرين العليا ECUMS، وكان في مقدمة إهتمامات هذا المركز جمع الوسائل والمصادر الضرورية لتشكيل بعثة علمية نظامية وذلك عن طريق ممثلي الجامعات المساهمة في هذا المشروع، فتلقى المركز أموالاً من جهات رسمية وخاصة.

وفي أيلول وتشرين أول من العام نفسه تم القيام بأول موسم تنقيب من قبل عشرين عضواً يساعدهم ثمانون عاملاً محلياً. وقد اعتمد فريق العمل وقتئذ بشكل أساسي على مشاركة بلجيكية (جامعة لوڤين الكاثوليكية الحرة وجامعة بروكسل الحرة) وفرنسية (جامعة ليل الثالثة)، وكان يضم أيضاً مساعدين ألمان، اسبانيين، إيطاليين وهولنديين أسهموا في العمل بصفة فردية.

ومنذ موسم التنقيب في عام ١٩٩٣ أتخذ الإسهام الألماني شكلاً رسمياً حيث تولى جواكيم برتشنايدر المسؤولية العلمية، بينما تولى الأستاذ ر. ويتمان المسؤولية الإدارية، لمشروع بحث موّلته بشكل أساسي جمعية الأبحاث الألمانية Deutsche Forschungs-gemeinschaft منذ شهر شباط ١٩٩٤.

كان موسم التنقيب الثاني عام ١٩٩٣ استثنائياً، ومن النتائج الأكثر أهمية كان اكتشاف مبان كبيرة رسمية تعود للألف الثالث ق.م واكتشاف الوثائق المسمارية الأولى.

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٩٣ تخلت جامعة ليل الثالثة عن متابعة تعاونها، وفي شهر كانون الأول من العام نفسه إنضمت جامعة مدريد المستقلة إلى المشروع، وأدى إهتمامها إلى إسهام زملائنا الإسبانيين رسمياً في نشاطات المركز الأوروبي لدراسات بلاد مابين النهرين العليا منذ عام ١٩٩٤، وبسبب نقص الاعتمادات كان هذا الإسهام لسوء الحظ قصير الأمد.

وفي عام ١٩٩٤ أعربت المديرية لعامة للآثار والمتاحف عن رغبتها في الإشتراك في التنقيبات الأثرية في تل بيدر. وفي صيف عام ١٩٩٤ أسهم فريق عمل مؤلف من خمسة أعضاء سوريين مع الفريق الأوروبي في موسم التنقيب الثالث، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأسم الرسمي للبعثة بعثة (التنقيبات الأثرية السورية الأوروبية المشتركة في تل بيدر). ومنذئذٍ تشكلت البعثة معاً من فريق سوري من المديرية العامة للآثار والمتاحف وفريق أوروبي.

وكان موسم التنقيب الأثري الثالث كالسابق غنياً باكتشافاته وبالتحديد اكتشاف رقم مسمارية مجدداً والتعرف على هوية مبنى من طبيعة مباني القصور في قلب المدينة القديمة.

وكان العمل المشترك الأوروبي السوري قد أصبح رسمياً بالإتفاق بين المركز الأوروبي لدراسات بلاد مابين النهرين العليا والمديرية العامة للآثار والمتاحف الموقّع في شهر آب ١٩٩٥ من قبل الأستاذ الدكتور سلطان محيسن المدير العام للآثار والمتاحف في سورية، ومن قبل الأستاذ الدكتور أندره أوسترلنك، رئيس جامعة لوڤين الكاثوليكية، المفوض من قبل المسؤولين عن الجامعات الأوروبية بالمساهمة في هذا المشروع.

وفي ربيع عام ١٩٩٧ إنضمت جامعة (كافوسكاري دي فينيسيا) بدورها إلى المشروع، الذي تولى مسؤوليته لوتشيو ميلانو، وكذلك

(معهد التعاون مع العالم) في مدريد. وللإختصار فإن المركز الأوروبي ECUMS مركز يضم المسؤولين عن جامعات أوربية مشتركة وهي:

- جامعة لوڤين الكاثوليكية الحرة (KUL): مؤسسة المشروع
- جامعة بروكسل الحرة (ULB): مؤسسة المشروع
- WWUM - في مونستر (منذ عام ١٩٩٣)
- جامعة شارك ديغول - ليل الثالثة (من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٣)
- جامعة مدريد الحرة UAM (من عام ١٩٩٤ حتى ١٩٩٦)
- جامعة كافوسكاري دي فينتسيا UCFV في البندقية (منذ ١٩٩٧)
- مؤسسات تتعاون في هذه المشاريع الخاصة ICMA في مدريد.

وذلك بهدف تنظيم وتمويل ونشر البحوث الأثرية عن موقع تل بيدر وتطوير الدراسات المتعلقة ببلاد مابين النهرين العليا (سلسلة سوبارتو).

وهذا المركز أيضاً على صلة دائمة مع بقية الجامعات الأوروبية (في برلين، ليبزيغ، أوكسفورد...) والأمريكية على الصعيد الأثري وفي الميادين التاريخية، وقراءة الكتابات، والميدان الإيكولوجي. وإن التطور الحديث لمشروع واسع مخصص للبيئة، والذي بدأت جامعة لوڤين الكاثوليكية الحرة بشكل رئيسي بتنفيذه أتاح تلمس آفاق جديدة للتعاون واستشفاف نشاطات جديدة قائمة على بحث ميداني شامل.

ويرأس المركز الأوروبي مارك لوبو، ويضم مجلسه العلمي الرئيس وممثلي الجامعات المشتركة رسمياً وحالياً هم:

- كاريل ڤان ليربرج (من جامعة لوڤين الكاثوليكية الحرة)
- فيليب تالون (جامعة بروكسل الحرة)
- جواكيم برتشنايدر (WWUM)
- ولوتشيو ميلانو (من جامعة كافوسكاري دي فينتسيا).

وإن تطور المركز الأوروبي ECUMS وإسهام المديرية العامة للآثار والمتاحف والدعم المستمر من قبل الجامعات المشتركة كل ذلك يتيح للعديد من الطلاب والباحثين الشباب أن يكونوا على صلة بالمختصين، والدخول إلى المراكز والمخابر من الدرجة الأولى، وتسهيل تعرفهم على البحث، والكشف عن امكانياتهم ضمن إطار أوروبي واسع.

وتعتمد التنقيبات الأثرية السورية الأوروبية في تل بيدر على ركيزتين هما:

- المركز الأوروبي ECUMS (بالنسبة للفريق الأوروبي)
- المديرية العامة للآثار والمتاحف (بالنسبة للفريق السوري - بإدارة حميدو حماده عام ١٩٩٤ وأنطون سليمان منذ عام ١٩٩٥). وإن الإسهام السوري يتعلق بالميدان الأثري بقدر مايتعلق بميدان الدراسات الكتابية والتاريخية.

ومنذ بداية الأعمال الأثرية في تل بيدر، فإن المدرسة العليا للعمارة "لاكامبر" أسهمت في البحوث وهناك مؤسسات أكاديمية وعلمية وحكومية دعمت المشروع منذ تأسيسه، نذكر من سورية:

- متحف حلب، دائرة آثار الحسكة، متحف دير الزور.

ومن بلجيكا:

Le Nationaal Fonds voor Wetenschappelijk Onderzoek

Le Fonds National de la recherche scientifique

المؤسسة الوطنية للبحث العلمي

L'Onderzoeksraad K. U. Leuven
L'Inter-University Pole of Attraction 34/ K. U.Leuven Partner
La Nationale loterij

- سفارة بلجيكا في دمشق
- بالنسبة لألمانيا:

La Deutsche Forschungsgemeinschaft
La Förderverein Tell Beyder e. V. et ses sponsors

ومن فرنسا:

- اللجنة الإستشارية للبحوث الأثرية في الخارج (وزارة الشؤون الخارجية)
- المركز الوطني للبحث العلمي
- المدرسة العملية للدراسات العليا
- المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى
- سفارة فرنسا في دمشق

بالنسبة لإسبانيا:

- سفارة إسبانيا في دمشق

ـ وزارة الشؤون الخارجية

بالنسبة للإتحاد الأوروبي:

ـ برنامج Med-Campus 95 (جامعة حلب، ليدن، لوڤين، مانشستر، اليرموك)

وأسهم هواة خاصون بنجاح المشروع، ونعبر لهم عن شكرنا بحرارة على عطاياهم، وينضم لهؤلاء الأشخاص مؤسسات آمنت بقيمة المشروع العلمي، ومن بينها كان الأكثر سخاءً Petro Fina وبخاصة المؤسسة العامة البلجيكية.

وإن ميشيل برتان من جهة، ومؤسسة Promethea من جهة أخرى لم يوفرا جهداً في سبيل مساعدتنا في الإتصال بالقطاع الخاص.

وإن مهندسينا حميد رضا صابوني، محمد جراد، أندره ستيفن جعلونا نفيد من خبراتهم في البناء وفي إدراك وتحقيق إطار حياة جيدة، فشيد بيت البعثة بتقاليد واسعة من الآجر المجفف. وإن هذه التنقيبات الأوربية، ثم السورية الأوربية لم يكن لها وجود لولا الاتفاق مع أصدقائنا وزملائنا السوريين ولولا تشجيعهم، ونود أن نذكر في مقدمتهم د. علي أبو عساف، د. سلطان محيسن المديرين العامين للآثار والمتاحف وعدنان البني مدير التنقيب، نسيب صليبي مساعد مدير التنقيب، جان سيمون لازار المسؤول عن إدارة آثار الحسكة، أسعد محمود مدير متحف دير الزور، ونقدم شكرنا الجزيل باسم فريق العمل لكافة العاملين في المديرية العامة للآثار والمتاحف.

التنظيم المعماري والعمارة

م. لوبو + ي. برتشنايدر
تعريب: هـ. عمران

تل بيدر (م. ل.)

يعود تل بيدر إلى عصر البرونز القديم (الألف الثالث ق.م)، وهو مدينة دائرية الشكل مساحتها ٢٨ هكتاراً، تقع على بعد ٣٥كم شمال غرب الحسكة في الجزيرة السورية العليا. وقد تمت حماية المدينة القديمة بسورين دفاعيين تخترقهما سبعة أبواب.

كما توجد بلدة أسفل هذا الموقع المستدير بمساحة حوالي ٤٠ هكتاراً، أنشئت في الفترة الميتانية خلال القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م، وهُجرت ثم بُنيت من جديد في الفترة الآشورية الحديثة (بيدر II).

المدينة المستديرة العائدة للألف الثالث (بيدر I) (م. ل. ج. ب. في الموقع F)

يتألف الشكل الطبوغرافي لتل بيدر من دوائر متحدة المركز، وقد أنشيء الموقع على طرف وادي الأعوج الذي يصل إلى مدينة ماردين. ويبدو أن الموقع مر بمراحل تطور مختلفة كتلك التي مرت بها مدن الألف الثالث (فترة السلالات المبكرة)، وقد أعيد بناؤه في الفترة السلوقية في القرن الثاني ق.م على شكل قرية كبيرة تميزت بالمنازل المؤلفة من غرفة واحدة.

– موقع التنقيب H

يقع موقع التنقيب H قرب البوابة الشمالية لسور المدينة الشمالي، وقد فقدت الأسوار شكلها وتم هدم أجزاء منها في وقت مبكر، وقد أظهرت التنقيبات السطحية طبقة DA III تعود لعصر السلالات المبكرة الثالثة، وهي تتألف من بُنى إنشائية صغيرة قد تكون على الأرجح ورشات عمل، وتم بناء هذه الطبقة على أساسات تم إنتزاعها من الأسوار، وقد كانت الأسوار سميكة والتصقت بعض المنشآت الصغيرة كالبيوت والورشات التي يعود بعضها لعصر السلالات المبكرة الأولى بجدارها الداخلي مما يدل على قدم هذا النظام في تسوير المدينة.

– موقع التنقيب G

تم فتح موقع التنقيب G على المنحدر الشمالي للمدينة العليا على شكل سبر متدرج للسويات، وقد ظهرت ثلاث طبقات سلوقية، تليها عدة طبقات استيطان تعود لعصر السلالات المبكرة الثالثة (٢٥٠٠–٢٤٠٠ق.م) على شكل مساكن خاصة، ثم ظهرت طبقات الإستيطان العائدة لعصر السلالات المبكرة الثانية حوالي القرن السابع والعشرين، وقد تأكدنا من وجود سور يحيط بالمدينة العليا بعرض لايقل عن ٥م.

– موقع التنقيب E

تم فتح موقع التنقيب E في الجزء الشرقي من التل، وقد تم الكشف عن مبنى إداري يعود لعام ٢٥٠٠ق.م بطول ٢٦م وعرض ٧،٥م، وهو ذو شكل طولاني ويتألف من أربع غرف مربعة متتالية متساوية في المساحة، وقد توضَّع المدخل في الغرب وهو يفتح إلى داخل المدينة، وتتصل الغرف مع بعضها بواسطة فتحات مغطاة بالقبوات. وعند التنقيب في الطبقة الواقعة أسفل المبنى، ظهرت منشأة أخرى مؤلفة من صفوف على شكل شبكة، وعادة مايستخدم مثل هذا النظام في البناء لتخزين الحبوب، ورغم عدم وجود أي أثر يدل على وجود الحبوب إلا أنه يمكن طرح مثل هذه النظرية.

– موقع التنقيب F (الأكربول)

يعلو الأكربول الصغير المركزي للمدينة العليا بحوالي ٧م والسهل بحوالي ٢٧،٥م، وقد تم بناؤه فوق الأجزاء العليا المنهارة من

مجمع إداري، وقد أظهرت التنقيبات تحت طبقة سلوقية وطبقتين للإستيطان الأكادي بناءً كبيراً يعود لفترة السلالات المبكرة الثالثة.
منسوب السلالات المبكرة الثالثة (البناء فوق مخطط سابق).
يحمل القصر سمات فترة السلالات المبكرة الثالثة (٢٥٠٠ق.م)، فجدرانه مبنية من الآجر الفاتح الأجوف، وقد كان مؤلفاً من ١٥ غرفة وفسحة سماوية في مخططه الأساس قبل أن يعاد إستعماله وترتيبه في فترة السلالات المبكرة الثالثة، ورغم دمار جزء من هذا المبنى في فترة السلالات المبكرة الثالثة، ولاسيما في زاويته الشمالية الغربية الناجم عن إنزلاق الأرض تحته، إلا أنه يمكن بسهولة إعادة تصور مخطط القصر، وقد كان للقصر طابق ثان على أكثر من نصف مساحة الطابق الأرضي، وكان مستطيل الشكل، تبلغ أبعاده ٣٢م×٢١م تقريباً، وقد توضع المدخل في وسط الواجهة الشرقية، ويتم الدخول إلى بهو إستقبال ثم فسحة سماوية مربعة تحيطها من جهتين أروقة محمولة على دعامات مربعة.

تتطابق خواص مخطط المبنى الأساس مع خواص العمارة الإدارية في بلاد مابين النهرين في الألف الثالث، المؤلفة من فراغات مركزية محاطة بأجنحة مؤلفة من غرف صغيرة، ويتميز المبنى بنوعية بنائه ووضوح مخططه وفقاً لتقاليد عمارة مابين النهرين.
منسوب عصر السلالات المبكرة الثالثة (المرحلة الثانية من البناء وتعديل المخطط):
لقد أدى إختفاء زاوية المبنى الشمالية الغربية إثر زلزال إلى قيام مستثمري المبنى بتعديل جذري لبنية المنشأة، ويبدو أنه حوالي عام ٢٤٥٠-٢٤٠٠ق.م، نفذت موارد سيد المكان، ولم يتمكن من استكمال بناء القصر الذي كان حوالي نصف جدرانه قد دُمر أو عُدل، وقد تم إشغال الجزء الذي بقي سليماً من المبنى في النصف الغربي من القصر، وقد تم ملء الغرف حتى إرتفاع مترين بالآجر المفرغ أثناء بنائها بالآجر الأحمر، ويلاحظ أن نوعية العمارة قد تراجعت مقارنة بالمرحلة الأولى، وقد وجدنا الجدران في حالة استثنائية من الحفظ، وقد حفظت بعض الأبواب على كامل إرتفاعها، كما تم العثور على ٢٠ رقيماً داخل القصر، تحمل ملامح أثرية تعود إلى مرحلة إشغال المبنى الثانية في عصر السلالات المبكرة الثالثة.
لقد تم تأسيس المرحلة الأولى على منشأة مؤلفة من ثلاثة فراغات رئيسة متتالية: الباحة ذات الدعامات وغرفتان مستطيلتان، وقد أحيطت هذه الفراغات الثلاثة بغرف للخدمة، ويمثل هذا التتابع لساحة سماوية ولفراغين ممتدين أحد أهم ميزات العمارة الملكية في بلاد مابين النهرين منذ عام ٢٠٠٠ق.م، ويبدو أن هذه المنشأت كانت تستخدم للإستقبال ومن الممكن أن يكون تل بيدر قد أظهر إحدى أقدم المنشآت الملكية العائدة لعصر السلالات المبكرة الثالثة، ولايمكن إهمال هذا التاريخ المعماري لأنه يمثل تجديداً أفرزته حضارة الجزيرة السورية العليا.

- السويات الأكدية:

هُجر مبنى المرحلة الثانية وإنهار في نهاية فترة السلالات المبكرة الثالثة، وفي السنوات الأولى من حكم سرغون حوالي عام ٢٣٥٠، تمت إعادة تنظيم القطاع المركزي من المدينة، فتم إنشاء مبنى جديد جنوب المبنى الإداري ماتزال وظيفته مجهولة لنا حتى الآن، ويتألف من مجموعة من الغرف علينا معرفة نمط نظيمها، وفي وقت لاحق خلال القرن الثالث والعشرين ق.م، في فترة قريبة من فترة نارام سن، هُجر تل بيدر تقريباً، ولايظهر فيه سوى مبنى مربع على قمة الموقع، أبعاده متواضعة ويتألف من غرفة واحدة تتميز بوجود دعامة مركزية ومنصتين ومذبح، ويبدو أنه كان معبداً.

موقع التنقيب B:

ظهرت في هذا الموقع طبقة سلوقية ثم حي سكني يعود إلى فترة السلالات المبكرة الثالثة، ويتألف الحي من جزر من المنازل المتلاصقة تشكل نسيجاً عمرانياً متماسكاً يتم توصيل المياه إليه بواسطة ممرات صغيرة مائلة مجهزة بقنوات من الحجر، ولم يتم إكتشاف أي منزل كامل في تل بيدر بل أجزاء من مخططات لستة أو سبعة منازل محددة من جهتين بالممرات، وقد تم العثور تحت أرضية منزل مؤلف من ثلاث غرف على ١٤١ رقيم تعود للألف الثالث أي ٢٤٢٥-٢٤٠٠ق.م.

المدينة المنخفضة (بيدر II)(ج. ب.)

يحد المدينة المنخفضة من الغرب تلة بازلتية ومن الشرق التل، وهي ذات مساحة كبيرة لكنها غير واضحة المعالم، وهناك تم فتح موقع التنقيب J حيث تم العثور على جدران مسكن آشوري حديث، وتحت منسوب هذه الطبقة عثر على سيراميك أقدم أكثره

كُسر من سيراميك نوزي من الفترة الميتانية (القرن ١٤ق.م)، كما عثر على بعض البقايا المعمارية ضمن هذه السوية الميتانية تعود لمنزل صغير وقاعدة مستديرة لمخزن للحبوب وجدران لبعض المنازل، مما يعني أنه كان على الأرجح حياً سكنياً.

الأختام الاسطوانية السورية والاكتشافات الجديدة في تل بيدر: تطورها والمشاهد التي قدمتها بين ٣٣٠٠ حتى ٢٢٠٠ق.م

ي. برتشنايدر + ج. ڤويت
تعريب: ب. زهدي

إن العديد من طبعات الأختام، التي ظهرت إلى حيز الوجود عند القيام بالتنقيبات الأثرية في تل بيدر، تدل في تنوعها على صلة وثيقة مع التقليد الثر لبلاد مابين النهرين، ولكنها تدل بمعنى أدق، على نوعية فن حفر الأختام في سورية الشمالية، وبشكل أكثر تأكيداً أيضاً، على العلاقة القوية التي تجمع الموقع مع المدينة المجاورة (تل براك). وهذا الإرتباط مشهود أيضاً في المصادر المكتوبة، وتقدم الرقم المسمارية في تل بيدر دلالات واضحة على صلة إقتصادية وسياسية بين هذين المركزين. وفي السطور التالية نستعرض، وبالاستناد الى الطبعات التي وصلتنا، وصف الإطار التاريخي والجغرافي، الذي تشكل فيه سجل لفن صور المجتمع في بيدر.

١ ـ من عصر الوركاء (أوروك) حتى عصر جمدة نصر (حوالي ٣٣٠٠ـ٢٩٠٠ق.م):

إن طبعات الأختام الإسطوانية الأكثر قدماً و المكتشفة في سورية كانت ملصقة على ختم الأواني أو الأبواب وعلى أقراص طينية، وعلاوة على هذا الإستخدام، فقد بُدىء شيئاً فشيئاً بلصق الأختام على الرقم.

ـ حبوبة كبيرة وتل براك: إن العديد من اللقى التي تعود إلى عصر الوركاء (أوروك)، وعثر عليها في حبوبة كبيرة الجنوبية، في مجرى الفرات الأعلى، محفوظة جيداً، وتبرهن على استخدام الأختام الإسطوانية في سورية منذ العصر القديم. كما عثر أيضاً في منطقة الخابور على دلالات عديدة من ثقافة تعود لعصر الوركاء (أوروك) ـ جمدة نصر، حيث كان تل براك مركز هذه المنطقة، وعثر على تمائم صور ممهورة وطبعات أختام على أواني من هذه الفترة، وذلك قرب أماكن العبادة وغيرها من المباني. ويصور فن الحفر غالباً زخرفة تمثل صفاً من الحيوانات، الذي يمكن تفسيره بسهولة، أنها حيوانات أليفة. إن أمثال هذه المشاهد قد فسرت أنها حيوانات مشتركة مع قطعان المعبد، التي يملكها الملك السادن. وهناك مجموعة أخرى من المشاهد تظهر نساءً ورجالاً يصنعون الأواني، في مشهد صناعة الفخار، ونقل البضائع أو أيضاً فعاليات التخزين.

٢ ـ عصر السلالات البدائية (حوالي ٢٩٠٠ـ٢٣٥٠ق.م)

لاتزال حتى الآن نهاية عصر جمدة نصر والفترة الأقدم من عصر السلالات البدائية (نحو ٢٩٠٠ـ٢٣٠٠ق.م) غامضة بشكل كبير بالنسبة لمادة الأختام السورية، والتي هي حتى يومنا هذا محدودة نسبياً. وبالإضافة لقطع الإستيراد التي مصدرها من منطقة ديالا، وجنوب بلاد مابين النهرين ومن إيران. يوجد أختام بأشكال هندسية وتجريدية من أصل سوري قريبة من أختام العصر السابق.

وكذلك البضائع ومعها الزخارف المشاهدة على طبعات الأواني المنتشرة في سوق واسعة بواسطة طرق تجارية بين الجنوب (سومر وسوسه) والشمال (سورية وفلسطين).

- تل خويره: تذكر الأختام المكتشفة في تل خويرة للدلالة على المرحلة الوسطى من عصر السلالات البدائية (نحو ٢٧٠٠-٢٥٥٠ق.م»)، فهذه الأختام طبعت عليها مشاهد هندسية خالصة، وصفوف أشخاص ساكنة. إن خصائص الأختام المصنوعة في تل خويرة، هي الزخارف مثل الورود، والمثلثات والنباتات والأسماك وأيضاً العقارب التي أدرجت في المشاهد الأكثر تعقيداً. وهناك مجموعة أخرى تظهر تشابهاً ظاهراً مع أختام مصدرها من جنوب بلاد مابين النهرين. إن المشاهد المهيمنة في هذه المجموعة هي مشاهد مآدب وأيضاً مشاهد صفوف من الأشخاص. إن مشاهد الصراع بين أسد وحيوان من قطيع هي من المشاهد المألوفة، وفي المشاهد الأكثر تعقيداً يظهر أيضاً إنسان يوصف بالبطل يتصرف كحامي للحيوانات، وهو كائن غريب شيطاني، الإنسان الثور، أو أيضاً النسر برأس أسد المشهور باسم (آنزو).

وفي النصف الثاني من الألف الثالث ق.م أمكن للمرة الأولى تاريخياً إدراك تشكل مراكز السلطة، والتي تحكم منطقة واسعة في سورية. وإن مدناً مثل ماري (تل الحريري) وإيبلا (تل مرديخ) وناجار (تل براك) التي يمكن وصفها بـ «مدن - دول»، كانت تبدو أنها تمارس مراقبة مساحات واسعة. ونتعرف على خصائص سورية محلية على صعيد الأسلوب والموضوع في طبعات أختام قصور إيبلا وتل بيدرخصوصاً، وفي طبعات مصدرها مستودع تل موزان.

- ماري: إن الوثائق المنشورة حتى الآن بخصوص أختام ماري، تعكس صورة غير متجانسة أسلوبياً، وإن النماذج المعروفة تجعلنا نفكر بوضوح ببلاد مابين النهرين الجنوبية. وارتبطت ماري التي كانت بكل تأكيد المدينة الأكثر أهمية في حوض الفرات الأوسط في عصر السلالات الأولى، بوضوح ثقافياً بالجنوب أكثر من المدن الأخرى السورية. إن أختام (كنز أور) المكتشفة في قصر ماقبل عصر صرجون في ماري متأثرة بالفن السوري بشكل كبير.

- إيبلا: اكتشفت في قصر إيبلا طبعات أختام كبيرة الأبعاد نسبياً، وعليها مشاهد تظهر سلسلة أشخاص، ومع ذلك ليست هناك أية صلة أسلوبية مباشرة لايمكن التعرف عليها بينها وبين مشهد معروف. جرت محاولة إجراء مقارنة مع الكتابة الإبلائية، والتي رغم أصلها البابلي الظاهر اختارت دائماً طريقاً خاصاً نسبياً.

- تل براك: أرخت مجموعة من طبعات تل براك بعصر يتراوح بين عصر السلالات الأولى والعصر الأكادي. إلى جانب زخارف هندسية خالصة، وصفوف حيوانات ومشاهد مبسطة. أما المجموعة من الأختام المستوحى موضوعها من صف من الأشخاص ومشاهد مآدب فهي علامة أختام تل براك بشكل خاص، وتمثل المواضيع التي تعالج معركة بين حيوانات بشكل رمزي، كما تختلط مجموعات الزخارف الكلاسيكية الرافدية في مشاهد الصراع الفوضوي. وقد أضيفت رسوم العقارب والطيور والرسوم الهندسية إلى الزخرفة، ونلاحظ في هذه المجموعة الخوف من الفراغ. وهناك مجموعة أختام غيرها تمثل صفين متدرجين من الزخارف، ونطاق أفقي مزخرف يفصل المشهدين، وهي سمة مميزة لفن الأختام السورية، وإن المأدبة تشكل الصف الأعلى، أما في القسم الأسفل غالباً ما تكون الحيوانات في صف بشكل مطبوع.

تل بيدر: تنسب حوالي ٧٩٠ طبعة ختم إلى الفترة الأحدث من الإشغال في القصر المؤرخ بعصر السلالات الأولى. وأن العديد من الطبعات مشابهة لطبعات مصدرها من تل براك، وبالتحديد مشاهد صفوف رؤوس كائنات غريبة، وتكون أحياناً متداخلة في مشاهد بحرية أو معارك. ومع ذلك، فإن مشاهد المأدبة المكتشفة في تل بيدر تذكرنا بنماذج مصدرها من بلاد مابين النهرين وتختلف جذرياً عن النماذج التي لها سمات مشاهد تل براك. وهناك مجموعة غيرها من الأختام مصدرها من القصر، عليها الزخارف الكلاسيكية مثل صف الأشخاص، صف الحيوانات، آنزو والمأدبة. وعثر في غرف القصر على طبعة ختم ملصق بشكل مألوف على الطين، إن هذا الختم يختلف عن غيره من أعمال هذه المجموعة ليس فقط، من حيث نقشه، بل أيضاً بغنى التفاصيل فيه، ويفترض أنه ختم إداري رئيسي في تل بيدر.

٣ - العصر الأكادي ٢٣٥٠-٢٢٠٠ق.م:

وإن كانت سلالة أكاد لم تحكم بلاد مابين النهرين سوى ١٥٠ عاماً، فإن الفن خلال هذه الفترة القصيرة قد وصل إلى قمة لامثيل لها. وعرف فن حفر الأختام أيضاً تجديداً أسلوبياً وتصويرياً. واحتل موضوع المعارك بين الحيوانات، وهو ماكان مشهوداً سابقاً في العصر السابق للسلالات الأولى، مكانةً أساسية، ولكن تأليف

الموضوع أصبح أكثر توازناً وأكثر قوة. و بالتوازي أيضاً، ازدادت المشاهد التي تمثل العالم الإلهي. ويجب الإشارة في هذا الموضوع الى بعض التقديس الذي يلقاه عالم الآلهة: إذ يشاهد كيف استقرت أنماط عرض الأرباب الذين تفردوا بخصائص وبملابس مميزة.

تل براك وتل بيدر: أظهرت التنقيبات الأثرية في تل براك طيلة ثلاثين سنة آثاراً رائعة من العصر الأكادي. وتظهر هذه المكتشفات أهمية هذه المدينة ودورها المركزي في الإقتصاد وسياسة بلاد مابين النهرين. وقد شيّد فيها الملك نارام ـ سين قصراً، لا بل قلعة كانت تدار منها المنطقة. وضمن البنية التحتية أيضاً يوجد مخزن واسع اكتشف فيه العديد من طبعات الأختام، ولكن العناصر التي تدل على أسلوب تصويري محلي نادرة جداً، فمعظم الطبعات ربما كانت من مصادر جنوبية مثل مشاهد معركة بين أسد وإنسان ثور. وبالنسبة لمادة أختام تل براك، نرى أيضاً مشاهد عديدة للأرباب المتماثلة برمزها مثلاً رمز حزمة أشعة لرب الشمس. وهناك مشهد يمكن مقارنته به قد اكتشف أيضاً في تل بيدر: حيث وجد في مسكن متأخر من جناح القصر للسلالات الأولى الذي يمكن تأريخه بعصر آكاد، ختم عليه مشهد لأرباب متفردين بشكل واضح.

تل موزان: لقد سمحت التنقيبات الأثرية الحديثة في تل موزان أيضاً، بحصاد غني من طبعات أختام من العصر الأكادي، وبفضل هذه الكتابات، أمكن ربطها بالعائلة الملكية. وتستمد أهمية هذه الأختام من أنها تقدم البرهان القطعي لمطابقة اسم الموقع بمدينة أوركيش الحورية، التي أضحت معروفة بفضل أنباء الصحف العالمية عن اكتشافها. وإن الشيء الملحوظ بشكل كبير في طبعات الأختام التي مصدرها مخازن أوركيش الملكية، هو بكل تأكيد الأسلوب الحوري الجديد للمشاهد، إنه إسلوب مدهش تماماً، ومختلف عما نعرفه حتى الآن في بلاد مابين النهرين، وأيضاً في المواقع المجاورة لها في الجزيرة مثل تل براك وتل بيدر.

الأبحاث البيئية

ر. ديكورت + ك. ڤان ليربيرج
تعريب: هـ. عمران

عالم الكتابة:

يظهر المعرض بوضوح نشأة الكتابة وتطورها في سوريا، لكن ماهي معلوماتنا عن الإنسان الذي كتب بالأحرف المسمارية؟ من هو؟ كيف عاش؟ ماذا كان يأكل؟

تعطينا نصوص تل بيدر بعض المعلومات عن تربية الحيوانات والزراعة في المنطقة، لكنها لاتتحدث عن مظاهر الحياة اليومية الأخرى، ويتم حالياً بفضل الدراسات المتعددة الأوجه إعادة تصور الواقع البيئي في الماضي، ولذلك فقد قام كل من كارل فان ليربيرج وغابرييلا ڤويت من جامعة لوڤين الكاثوليكية بوضع برنامج بهذا الخصوص بالتعاون مع عدة مخابر في أنحاء العالم، وقد تم نشر هذه النتائج عام ١٩٨٨، ولتوضيح المعطيات العلمية التي أخذت بعين الإعتبار في هذه الدراسة لزائري المعرض، فقد تم إختيار مثال قبر الأكروبول في تل بيدر. (الصور والمخططات في الكاتالوج).

رؤية شاملة للمعطيات المختلفة الداخلة في الدراسة:

تمت دراسة الفخار الذي وجد في القبر من وجهة نظر تقنية، فتم تحليل الصلصال والألوان ودرجة حرارة الشي وتقنيات التصنيع، كما قام خبير بالنباتات مختص بالمرحلة الباليوليتية بدراسة الحبوب لمعرفة نوع الزراعة في الماضي، ثم تمت مقارنة النتائج بالنصوص الأثرية، وقد أعتمدت الزارعة وتربية الحيوانات على الظروف المناخية لذلك تمت دراسة جيولوجيا المنطقة ومناخها، فقد تم تحليل الغضار والجبس المستخدمين في أبنية تل بيدر، وتم حساب مقاومة هذه المواد للوصول إلى تصور علمي محدد لشكل هذه الأبنية.

كما تمت دراسة الأدوات المعدنية والأحجار الكريمة المكتشفة في القبر للوصول إلى فكرة عن أصولها، وتمت مقارنة النتائج مع تلك التي تم الحصول عليها في المواقع القريبة مثل تل براك وتل ليلان وتل موزان، وقد استطعنا استنتاج وجود طرق تجارية لمسافات بعيدة. لكن إعادة تصور الطرق ذات المسافات الطويلة أو الطرق المحلية تطلب رسم خارطة للمواقع الأثرية والطرق في المنطقة وقد تم ذلك بالإستعانة بالصور القديمة والمعطيات الأثرية والنصوص.

لقد قادنا أكتشاف طائرين في القبور إلى الاستعانة بعلم دراسة الحيوانات القديمة ليساعدنا على معرفة أنواع الحيوانات التي وجدت في الماضي في منطقة تل بيدر، وأخيراً كان لإكتشاف الهيكل العظمي المدفون في القبر دوراً مهماً في الحصول على معلومات عن سكان تل بيدر، فدرس عالم الأنتروبولوجيا الإنسان القديم وجنسه ونظامه الغذائي وأمراضه ...إلخ، ومنذ بضعة سنوات تم إدخال نوع جديد من العلوم هو علم الآثار الجزيئي، وهو يعطي فكرة أوضح عن الإنسان القديم.

علم جديد مثير: علم الآثار الجزيئي:

خلال الأعوام الماضية لقيت بقايا الإنسان القديم إهتماماً متزايداً من قبل علماء أجناس الشعوب، وبظهور تقنية التفاعل المتسلسل لعملية البلمرة (Polymérase (PCR)، فقد أصبح بالإمكان الحصول على معلومات جينية من كميات صغيرة من الحمض النووي DNA حتى ولوكانت متضررة ومأخوذة من عينات قديمة (Rogan, Salvo 1990)، وقد ظن العلماء في البداية أنه لايمكن استخدام إلا العينات المحفوظة بشكل صناعي (كالمومياءات) أو بشكل طبيعي ضمن ظروف خاصة (كما في المناجم والأحافير)، ولذلك فقد كان لنشر النتائج الأولى لدراسات الحمض النووي DNA المستخرجة من العظام والأسنان القديمة ضجة كبيرة مقارنة بالدراسات السابقة، وتعتبر النسج القاسية مصدراً مهماً للبقايا الإنسانية عندما تكون التنقيبات صعبة، وتشكل الأسنان بشكل خاص عينات مهمة للدراسة، ويعتبر لب السن مصدراً مهماً للحمض النووي DNA،

فهو محمي بالسطح الخارجي للسن، وفي حين يجب كسر العظم للحصول على الحمض النووي DNA، فإنه يكفي إحداث ثقب صغير في السن للوصول إلى اللب. إذاً تغدو هذه المقاربة مهمة لدراسة الحمض النووي DNA القديم من أجزاء مقتطعة من الحنك.

تستطيع المعلومات عن علم الوراثة المستقاة من دراسة الحمض النووي DNA أن تكمل وتوسع المعلومات المأخوذة من الدراسة الإنتربولوجية الإنسانية، فهذه البقايا تكون مبعثرة في بعض الأحيان لدرجة لاتمكّن تحديد جنس الإنسان بالطرق التقليدية المتعارف عليها، وعندها يحدد تحليل الحمض النووي DNA البديل الموثوق به عن نوع الجنس. كانت دراسة الخواص التي يخمن أنها وراثية للهياكل العظمية سابقاً هي الأساس لتحديد صلات القربى بين البقايا الإنسانية في المقبرة الواحدة سواء كانت لأعضاء من أسرة واحدة أو لعدة أسر أو لمجموعة من الناس ليس بينها صلة قربى. ولكن هذه الدراسة أقل دقة من تحليل الحمض النووي DNA المتعدد الأشكال في الحمض النووي DNA القديم .لذلك إن دراسة الحمض النووي DNA القديم ودراسة البقايا الإنسانية مكنتا من تقديم مساهمة مهمة لمعرفة المواقع الأثرية وتحركات المجموعات البشرية في الماضي.

التحليل الجيني الجزيئي للسكان في تل بيدر:

يقع تل بيدر عند ملتقى طريقين تجاريتين رئيستين بريتين تربطان إيران بالأناضول وبلاد مابين النهرين بالبحر الأبيض المتوسط، فكان مركزاً للتبادل الثقافي وطريقاً لهجرات متعددة للسكان، وتعود النصوص المكتشفة في الموقع للألف الثالث ق.م، وقد كُتبت بلغة سامية، وتظهر هذه النصوص أن تل بيدر كان في الماضي جزءاً من مملكة ناغار (ومن المرجح أنها تل براك الحالي). وأنه كان تحت السيطرة الحورية الميتانية في الألف الثاني ق.م، ثم تبع الإمبراطوريتين الآشورية والسلوقية، مما يعني أن البقايا الإنسانية القديمة في تل بيدر تعود لمجموعات سكانية مختلفة.

يظهر التحليل الجيني لسكان تل بيدر القدماء العلاقات المتبادلة في الماضي بين هذا الموقع والمواقع الأثرية في سورية الشمالية مثل تل ليلان وتل براك، ويسمح ذلك بفهم أوسع لكيفية حصول الهجرات في الماضي، وسنرى مقدار تطابق هذه النتائج مع الإكتشافات الأثرية والأنتروبولوجية. أخيراً تساهم الدراسة الجينية لسكان سورية القدماء في فهم أكبر للتاريخ الجيني للسكان الأوروبيين، فالزراعة الأوروبية نشأت في الشرق الأوسط منذ حوالي عشرة آلاف سنة في سهول مابين النهرين والمنطقة الجبلية في الأناضول، وبدأت بالإنتقال إلى أوروبا عبر البلقان ومناطق المتوسط، حتى غطت كامل المناطق الملائمة للزراعة في أوروبا حوالي عام ٣٥٠٠ق.م، وإذا كان بالإمكان تحديد طرق إنتشار الزراعة وتاريخها، إلا أنه لايمكن تحديد ظروف إنتقالها، ومن الممكن أن يكون إنتشار الزراعة قد أدى إلى زيادة الكثافة السكانية في مناطق نشأتها وفي المناطق التي انتقلت إليها، كما يمكن أن يكون قد أدى لتغيير جيني بين مزارعي العصر الحجري الحديث وصيادي العصر الحجر الوسيط، لقد قدم تحليل الزمر الدموية والأشكال المتعددة للبروتينات للشعوب الأوروبية المختلفة البراهين التي دعمت هذه النظرية، فالإختلاف الجيني بين المناطق الأوروبية المختلفة يظهر وجود علاقة مؤكدة مع إنتشار الزراعة (Sokal et al. 1991). كما يساهم تحليل التنوعات الجينية في بقايا الإنسان القديم في مواقع سورية الأثرية وفي مناطق من أوروبا في إعادة تصور التاريخ للشعوب الأوروبية.

منهج البحث:

ـ استخراج الحمض النووي DNA

تتم حالياً دراسة بقايا الأشخاص الثمانية التي تعود للفترة الواقعة بين عامي ٢٧٠٠ و٢٢٠٠ق.م في مركز دراسة الجينات الإنسانية في جامعة لوڤين الكاثوليكية، وتتألف العينات في أغلبها من قطع عظمية بعضها محفوظ بشكل جيد (كالفقرات) وبعض الأسنان، ومنعاً لحصول أي تشويش في النتائج توجب إزالة الطبقة السطحية للعظام، ليتم بعدها طحنها في آلة (مطحنة مجمدة) واستخراج الحمض النووي DNA وفق طريقة خاصة (.Höss et al 1993) التي ثبت مطابقتها تماماً للحمض النووي DNA المستخرج من هياكل عظمية من مرحلة Pleistocènes من الحقبة الجيولوجية الرابعة.

ـ تعدد الأشكال:

يهتم التحليل الجيني الجزيئي للبقايا الإنسانية القديمة في تل بيدر بتعدد الأشكال النووية والميتوكوندريا، فالجينات الميتوكوندرية هي مفتاح إعادة تصور تاريخ المستوطنات الإنسانية القديمة إذ تتم

وراثتها من جهة الأم ولاتتحد أبداً، وهي موجودة بأعداد كبيرة (٥٠٠-١٠٠٠) في كل خلية، لذلك لها فرصة كبيرة لتعيش منفردة عند بدء عملية التحلل بعد الموت، وتنحصر أنواع سلسلة الحمض النووي DNA الميتوكوندريالي في منطقتين من ٤٠٠ bp في (d-loop). ويتم تحليل هذه الأنواع بعد إجراء التكبير بتحليل مسلسل مباشر بواسطة مُسلْسِل آلي للحمض النووي DNA (Jehae et al. 1994)، وقد أمكن استخدام سلسلة النتائج لإيجاد العلاقات الأسرية من جهة الأم أو لإنشاء الشجرة العرقية التي تظهر العلاقات الجينية بين الشعوب المختلفة، أما العلاقات الأسرية من جهة الأب فلا يمكن تحديدها إلابتحليل محتويات الجين داخل النوية، لكن التحليل الجيني الجزئي للحمض النووي DNA القديم ليس طريقة مباشرة، ونجاحها غير مؤكد، إلا إذا تمت مضاعفة حساسية الطرق المستخدمة (PCR والهلام المشكل تحت تأثير حقل كهربائي)، ويتم الإهتمام بشكل خاص بمحتويات الصبغي Y والذي توضحت أهميته مؤخراً في مؤتمر (Euro conferance: Human Genome Variation in Europe, 1990). تكمل هذه الأشكال المتعددة معطيات الميتوكوندريا (جهة الأم) وتساعد في التحليل العرقي، وأخيراً يتم تحديد جنس البقايا الإنسانية في تل بيدر باستخدام الحمض النووي DNA، وذلك باستخدام طريقة تعتمد على جيني موجود على الصبغي X وله مقابل في الصبغي Y، وهو يسمح بتحديد جنس الإنسان الذي تعود له هذه البقايا، حتى ولو لم تحوِ سوى القليل من االحمض النووي DNA. وهذه الطريقة ناجعة أيضاً في حال وجود عينات من الحمض النووي DNA المأخوذ من هياكل عظمية قديمة.

- المراقبة ومعايير الدقة:

بعد الحصول على المعلومات الجينية من الحمض النووي DNA القديم، علينا التأكد من أن هذه المعلومات تعود فعلاً للعينة التي تم تحليلها، وقبل البدء بدراسة الحمض النووي DNA القديم يجب التأكد من عدم حصول أي تلوث في المخبر، ويمكن تحقيق ذلك بالقيام بالفصل الفيزيائي لمراحل العمل المختلفة عن بعضها كاستخراج الدنا و PCR وتحليل PCR عن بعضها، وباستخدام الفحوصات كالإستخراج التجريبي (ليس للمادة العظمية) وبالفحوص السلبية (ليس للحمض النووي DNA) وبالفحوص الإيجابية.

كما يجب أن تثبت المعلومات الجينية التي تم الحصول عليها من الحمض النووي DNA القديم باستخراج جديد للحمض النووي DNA من عدة أماكن من نفس العينة أو لنفس الفرد.

كما لابد من تأكيد هذه المعلومات بدراسة العينات في مخبر آخر إذا كانت كافية، كما يجب دراسة عدة أجزاء من العينة، وأخيراً التأكد من جنس الإنسان باستخدام PCR الذي سيكون فحصاً إضافياً لصحة الحمض النووي DNA القديم.

الخاتمة:

يفتح الحمض النووي DNA القديم، وحتى ولو كان تالفاً، مجالات واسعة أمام الأبحاث الأثرية والأنتربولوجية والجينية، ويمكن أن تؤكد المعلومات الجينية ماإذا كان الإنسان يعود للمقبرة نفسها وأن تعطي معلومات عن هجرات الشعوب والعلاقات فيما بينها، كما تساهم في معرفة تطور الإنسان وتساعد على بناء التاريخ الجيني للإنسان المعاصر.

تل بيدر في عالم ما بين النهرين

ي. برتشنايدر + م. لوبو + ف. تالون + ك. ڤان ليربيرج
تعريب: ب. زهدي

إن التنقيبات الأثرية في تل بيدر تندرج بشكل رئيسي ضمن الإشكالية المعروفة حول أهمية أعالي بلاد مابين النهرين في نشر الثقافة المدنية في الألف الثالث قبل الميلاد، وتضاف هذه النتائج إلى تلك المستخلصة من التنقيبات الأثرية في براك، ليلان، موزان، خويره، دون أن ننسى متابعة البحوث في ماري وترقا، والعديد من التنقيبات الأثرية ضمن حملة تنقيبات الإنقاذ الجارية في حوض الفرات والخابور. وإن هذا التركيز الأثري الكبير على مراكز البرونز القديم في أعالي بلاد مابين النهرين يتيح إظهار الدور الرئيسي الذي لعبه هذا الإقليم، ليس فقط على الصعيد الإقتصادي والتجاري ولكن أيضاً في نقل الظواهر الثقافية ـ التي منها ممارسة الكتابة ـ وفي خلق مفاهيم أصيلة.

إذا كان تل بيدر يشكل أهم مركز مدني خلال الألف الثالث قبل الميلاد في القسم الغربي من «مثلث الخابور»، لكن من غير الممكن مقارنة حجمه بأهم مدن الإقليم الواقعة إلى جهة الشرق أي تل براك (ناجار) وتل موزان (أوركيش) وتل ليلان (شحنا) أو إلى جهة الغرب مثل تل خويرة.

إن ماري هي العاصمة الفعلية الوحيدة لأعالي بلاد مابين النهرين، حيث كانت مساحتها تبلغ نحو ٢٠٠هكتار في عصر السلالات الأولى، أي أنها الوحيدة التي يمكن مقارنة أبعادها بأكبر المراكز البابلية المركزية أو بلاد سومر، وبالمقارنة، فقد تبدو تل براك وتل موزان وتل ليلان وتل خويرة كمراكز مدنية كبيرة لها أهمية محلية خاصة. وبالقياس إلى هذه المدن الواسعة، فإن مدينة تل بيدر في عصر السلالات الأولى كانت تظهر أكثر تواضعاً، فمساحتها ٢٨ هكتاراً، وكان ربع هذه المساحة مسكوناً بكثافة فعلاً. وعلى غرار تل مدينة الهوا، وحمام التركمان وتل خوشي، فإن تل بيدر إندرج في عداد المراكز المدينة المتوسطة الحجم، وأبعادها أقل من المعروفة في إقليمها، ولديها محطات قوافل متميزة تمارس المراقبة على منطقة مؤلفة من عدة مدن وقرى ودساكر ومنشآت ريفية.

هل يمكن الذهاب أبعد من ذلك!

إن أهمية الحيوانات اللبونة واردة في نصوص بيدر، حيث تشير إلى عدة أنواع من البعير ويعرف أيضاً بأن الحيوانات اللبونة في المنطقة كانت تقدر بشكل كبير في إبلا. وإن (الرب شماغان) سيد حيوانات أراضي السهوب البور مذكور أكثر من مرة، ويبدو أن معبداً كان مخصصاً له، وكان سيد (ناجار) ينتقل في كل الحالات إلى بيدر للقيام باداء الأضاحي على شرفه، وإن أحد شهور التقويم يحمل أيضاً إسمه، إذاً إن هذا الرب (شماغان) كان رباً مقدساً بشكل خاص.

من العناصر التي تساعد على استشفاف وظيفة محطة قوافل هامة في منطقة مثالية لتربية البعير ـ وبشكل خاص ـ لتأهيل الحصان حتى عهد قريب، لابل معاصر، هو أولاً وجود البرهان في الأختام المحلية على مهنة صانع العربات بدولابين وعربات بأربعة دواليب في بيدر، وكثرة مشاهد العربات والعربات الصغيرة مجزأة أو غير مجزأة، وثانياً الأحاديث المألوفة عن زيارات (إن) أي سيد (ناجار) في بيدر. إن مقومات النجاح لمدينة متوسطة في عصر السلالات الأولى هي وجود إقتصاد مختلط قائم على مراقبة مراكز زراعية صغيرة، وعلى تربية أنواع البعير الخاصة، ومركزها كمرتكز قوي على طريق تجارية كبيرة، وأيضاً وجود مركز لمهن نوعية مختلفة، كما يمكن تقدير عدد سكانها آنذاك بـ ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ قاطناً.

إن هذه المدينة، التي كانت مزدهرة وربما كانت مستقلة في نحو ٢٥٠٠ق.م، انتقلت في نحو نهاية القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد إلى فلك (ناجار) دون أن تضطرب أسس إقتصادها. كما حكمتها في نحو ٢٣٥٠ق.م أي في تاريخ قريب من مجيء

صرجون إلى الحكم، القوة الأكادية، وكان ذلك ـ بدون شك ـ بداية أفولها السريع.

ولنبحث الموقف على نطاق أوسع.

منذ عشرين سنة فتحت اكتشافات تل مرديخ/إبلا فصلاً جديداً في تاريخ بلاد مابين النهرين. بعيداً الى جهة الغرب كانت توجد مملكة سامية كبيرة فيها فعاليات مرتبطة بشكل خاص بالتجارة وتربية الحيوانات، فكان ذلك مفاجأة في عالم الآثار وتاريخ الشرق الأدنى. والمدهش أكثر أن هذه المملكة كانت تعرف الكتابة المسمارية، كما دمجت كل المساهمات العلمية والثقافية لجنوب بلاد مابين النهرين. وإن إكتشاف رقم تل بيدر (وعددها ١٦٥ حتى يومنا منها ١٤١ في ورشة B و٢٤ في قطاعات أخرى تنقيبية) أخذ يتمم في أيامنا الصورة المتغيرة دائماً لتاريخ أعالي بلاد مابين النهرين في الألف الثالث ق.م.

لقد وضع في عام ١٩٨١ عالم الآثار الآشورية (أغناس جليب) إعتماداً على مايعرف في الوقت الحاضر عن معاملات بين السومريين والأكاديين، وعن الطرق التجارية، وعن البنيات السياسية ومختلف ميادين الثقافة المكتوبة نموذجاً لما دعاه (حضارة كيش)، ومع أن قراءة وثائق إبلا بطيء وصعب، فإن هذا النموذج لم يقم منذئذ إلا بدعم هذا المفهوم، فما هو؟

خلال قرنين سبقا استيلاء صرجون الأكادي على السلطة (نحو ٢٣٥٠ق.م) هذا العصر الذي يسمى عموماً (ماقبل صرجون) فإن مدينة (كيش)، والتي أضحت ضمن بلاد أكاد فيما بعد، كانت تبدو للمعاصرين ذات مدلول خاص، فمثلاً، إن ملوك سومر أي مدن أقصى جنوب العراق الحالي، التي تسكنها أكثرية سومرية، كانت تتنافس فيما بينها لمدة طويلة للهيمنة على المنطقة، وعندما كان أحدهم يصل إلى تحقيق وحدة البلاد مؤقتاً، يتخذ لقب ملك كيش، وبخلاف المدن الجنوبية السورية، كان القسم الأعظم من ملوك كيش يتخذون أسماء أكادية، وإن القليل جداً من نصوص هذا العصر المجموع في موقع كيش يظهر أيضاً سياده الساميين في هذه المدينة. إذاً كان شمال بلاد سومر ذا صبغة سامية سائدة وأكادية، في حين أن الجنوب كان سومرياً بشكل واضح.

ومن وجهة نظر أدبية وثقافية فإن الأمور تبدو أقل وضوحاً، فالنصوص الأدبية المكتشفة في المواقع (فارا قديماً شوروباك) و(أبو صلابيخ) كتبها نسّاخون سومريون وأكاديون، حتى وإن كانت مكتوبة بلغة سومرية. يستنتج إذن أن ثقافة بلاد مابين النهرين مقسومة ومنذ أقدم العصور بين هذين المؤلفين اللغويين، وإن حضارة بلاد مابين النهرين منذ البدايات هي ثقافية الطابع.

وقد عُرف أنه كان لمدينة كيش سياسة خاصة وهامة، ومن المحتمل أن هذا تأتى من موقعها الجغرافي الإستراتيجي. فالذي كان يحكم في كيش يجد نفسه تلقائياً المسؤول عن حماية بلاد سومر ضد غزوات الجبليين القادمين من الهضبة، ومن ناحية أخرى أيضاً المتحكم في مراقبة التجارة الهامة للمنتجات المستوردة من عيلام (إيران قديماً)، وأهمها تجارة القصدير التي لاغنى عنها في صناعة البرونز.

يمكن أيضاً منذ عهد كيش ضم طريق تجاري آخر، أهميته لم تعرف إلا حديثاً، إنه طريق سفوح الجبال، ينطلق من سومر ويصعد مع نهر دجلة حتى بلاد آشور، واصلاً بعدئذٍ إلى مثلث الخابور لإجتياز الفرات بسوية كركميش، وواصلاً إلى إبلا أو البحر المتوسط إلى الجنوب، تسمح بإجتياز طوروس للتزود بالمواد الأولية في الأناضول أو أرمينيا، أو بالعكس الإتصال بمدن الفرات الكبرى مثل ماري، ويبدو بوضوح أكثر فأكثر في هذه السنوات الأخيرة أن هذه الطريق تفوقت على طريق الفرات.

لقد ورد بوضوح أن وضع كيش في التبادل الإقتصادي الذي كان يربط مختلف بلاد الشرق الأدنى كان جيداً، مما يدل على أنها لعبت دوراً كبيراً في التبادل وفي نشر الأفكار والمعرفة.

إن جنوب بلاد مابين النهرين، كما سبق، كان سومرياً بشكل رئيسي. لقدكانت لغة أكثرية السكان في الشمال والجنوب سامية. وهذا ما أوضحته رقم مكتشفة في ماري وإبلا والآن في تل بيدر. وانطلاقاً من كيش، وبالصعود باتجاه الشمال الغربي، يوجد إقليم سامي واسع خصائصه غيرمحددة حتى الآن. ولكن التشابهات ظاهرة بشكل كبير، فبهذه الطريقة وصلت الكتابة المسمارية وكل الثقافة المرتبطة بها إلى سورية الغربية، أي إلى مملكة إبلا.

ونظراً للعدد المتزايد من البعثات الأثرية الموجودة في مناطق من سورية الشمالية، فإنه من المؤكد بأن المكتشفات ستتضاعف فيها في المستقبل القريب، وأكثرها ربما سيكون في تل بيدر. في الواقع إنه ـ وللمرة الأولى ـ يعثر على رقم مسمارية في سورية الشمالية الشرقية «مثلث الخابور» ملتقى الطرق التجارية، تعود إلى عصر ماقبل صرجون.

إن تل بيدر الذي نجهل اسمه القديم حتى الآن، لم يلعب بكل تأكيد الدور الأول في نقل الثقافة بين كيش وسورية الساحلية،

وليس هناك مايدعم مثل هذه الفرضية. وإن مايمكن استنتاجه مع ذلك هو أن إكتشاف الرقم في هذا المكان يؤكد بشكل كبير أهيمة هذه المنطقة عصرئذ، إذاً إنها لم تكن صحراء ثقافية، فالكتابة والممارسات الإدارية التي نعرفها من رقم إبلا وماري وفارا وأبو صلابيخ كانت معروفة في الشمال، وبالتحديد في تل بيدر، وهذا يعني إذن أن هناك «حلقة ناقصة» بين سومر وإبلا.

ومع ذلك علينا أن نبقى حذرين فيما يتعلق بالاستنتاجات التي نستخلصها من أرشيف تل بيدر، ولحسن الحظ فإن بعض العناصر أكيدة فلنستعرضها.

إن رقم بيدر صعبة كونها نصوص إدارية وقوائم شخصية وزراعية وحيوانية، بقر وحمير خصص لها حصص، حيث تذكر فيها تفاصيل حساب دفع صادرة عن إدارة مدنية. وبعض الرقم آلت إلى الإهمال، ومضمونها أصبح بالياً. لكن بعضها كان مؤرخاً، وسنعود إلى قضية التقويم. ويمكن القول منذ الآن بأن التواريخ الوحيدة التي على الوثائق هي تواريخ شهرية، حسابات لشهر أو أقل. وعادة ماتكون مثل هذه الوثائق مؤجلة إلى آخر السنة على سجلات سنوية لتسوية الميزان السنوي لحسابات الإدارة. وإن الرقم الوسيطة تغدو غير مفيدة في نهاية السنة عندما يتم حاصل الحساب، فيمكن عندئذ التخلص منها.

إن هذا هام جداً لأنه يعني وجود ديوان إداري حقيقي حيث يمكن إنتظار إكتشاف رقم سنوية وهي غالباً ماتكون أكثر تفصيلاً وأكثر إعلاماً كما يظهر لنا ذلك في وثائق إبلا.

تطرح في مثل هذه الوثائق شؤون بأسلوب إداري وموجز جداً. لا نصادف على خمس وستين ومائة نص صيغ فعلية إلا فيما ندر، فالعلامات النحوية لم تكن واضحة أبداً، حيث لم يكن يسجل سوى اسم الشخص، مركبة الحبوب أو الشيء العائد إليه. وأحياناً يكون اسم الشخص مصحوباً باسم الوظيفة أو المهنة: لبّاد، فاخوري، مزارع، صانع عربات...إلخ ومع هذا، فإن لدينا عناصر كافية للتأكيد بأن اللغة التي استعملها الكتّاب كانت سامية ذات شكل أكادي قديم.

وإن أسماء الأشخاص العديدين الواردة في نصوصنا تدعم هذه الفكرة. وفي الواقع، في ذلك العصر كانت الأسماء مشكلة من جمل قصيرة أو صفات نموذج: إن مثله هو ربي، إن هذا الرب سمع صلاتي...إلخ وكل الأسماء القابلة للتوحيد ذات بيان سامي سيذكر (أرشي آخو/أي كانالي أخ)، (يسمع أيلوم/أي/لرب سمع). إن بعض هذه الأسماء معروفة جيداً في مواقع فارا وماري وإبلا، لأنها كانت مألوفة عصرئذ. يمكننا أذن أن نستنتج بأنه كان يوجد في كل بلاد مابين النهرين وحتى سورية تقليداً خاصاً بأسماء العلم المشتركة على نطاق واسع.

إلى جانب أسماء العلم للأشخاص قدمت النصوص أيضاً عدداً كبيراً وهاماً جداً من أسماء الأمكنة كانت حتى الآن مجهولة تماماً، باستثناء مدينة ناجار، المدينة الهامة التي تقع بالضبط في جهة ما في مثلث الخابور. ويبدو أن سيد ناجار حكم تل بيدر، على الأقل في نحو ٢٤٠٠ق.م، في عصر المرحلة الثانية من مجموعة السلالة الرسمية القديمة الثالثة، إن أسماء الأمكنة هذه أيضاً سامية وستسمح لنا في المستقبل بالتعرف بشكل أفضل على جغرافية المنطقة، ومازلنا نجهل الأسم القديم لموقع تل بيدر، فلربما كان وارداً بين أسماء الأمكنة المؤكدة في النصوص، ولكن ليس هناك مايسمح لنا بالتأكد من ذلك.

نستنتج في بادىء الأمر تشابهاً كبيراً وعاماً بين كل نصوص هذا العصر، أو ماهية مصدرها. إن التقليد الكتابي، وطريقة تشكيل الرقيم وهيئة المساحات المكتوبة هي نفسها في كل مكان. لكن الإختلافات تظهر في التفاصيل، ويكمن الإختلاف الأول والأكثر وضوحاً في الأشياء المحسوبة، فمثلاً عندما يذكر عشرة حميريكتب في كل مكان الرقم عشرة يتبعه شارة تدل على الحمار. إن هذا الترتيب مقلوب في تل بيدر: يكتب الحمير عشرة.

وهناك خلاف آخر كتابي يقع في ترتيب الأقسام المشكلة لبعض الشارات المعقدة، إن هذه التنوعات يمكن أن تبدو لا أهمية لها ولكنها مع ذلك هي شارة تقليد محلي أو في كل حال تقليد مختلف قليلاً عن ديوان إبلا والإدارات السومرية.

وربما كان الأكثر أهمية من هذه التفاصيل هو وجود تقويم جديد، بالنسبة لعصر ما قبل سرجون كان يعرف ـ حتى الآن ـ تقويمان ساميان، أحدهما مشترك في كل النصوص المعروفة باللغة السامية في كيش وماري وإبلا، وأدخل الديوان بعدئذٍ تقويماً سامياً آخر أيضاً. ومع ذلك فقد أعتبر (جيلب) وجود تقويم سامي مشترك هو أحد العناصر الأولية لحضارة كيش. إننا بحق أمام تقويم جديد كلياً في تل بيدر، حيث كل أسمائه مؤلفة من عنصر يتبعه اسم رب، وربما تفسيرها كأسماء من نوع شهر عيد رب ما. إن رقم تل بيدر مثل كل الرقم الإدارية عصر ئذٍ معلوماتها لم تكن وافرة. إن المهمة تبقى عسيرة طالما كان المفهوم تركيبياً، وأيضاً بسبب غياب الوثائق

الإدارية الأكثر تفصيلاً أو النصوص الأدبية أو المعجمية. ولكن هذا يعني بأنه لايجب تصغير إكتشاف كهذا، فإكتشاف رقيم واحد من عصر ماقبل صرجون في هذا المكان، هو في حد ذاته اكتشاف كبير. إن تل بيدر الذي اكتشف فيه خمس وستين ومائة وثيقة من عصر السلالة الأولى يقع في المقام الثاني في سورية بعد ابلا وإن يكن بفارق كبير.

إن هذا هو حال الوضع الأثري، ومع ذلك فإن آفاق إكتشاف نصوص أخرى كبير.

إن كل هذه العناصر يمكن أن تعني بأن الوضع لم يكن إلى هذه الدرجة واحداً كما افترضه نموذج حضارة كيش. فلابد أنه وجدت ممالك مختلفة في سورية الداخلية، بين سومر وساحل البحر المتوسط وإن كان لهذه الوحدات السياسية والثقافية خصائصها هي أيضاً. وإن الثقافة مثل التبادل التجاري والإتصالات السياسية انتشرت عبر تعاقب ممالك استقرت على امتداد المحاور الكبرى للإتصال. ومازلنا ننتظر أن تكتشف أكثر من إبلا في شمال سورية، لذا نراهن بشكل كبيرعلى الحفريات المتعددة في شمالي سورية وفي تل بيدر بشكل خاص.


وزارة الثقافة
المديرية العامة للآثار والمتاحف
الجمهورية العربية السورية
Bibliotheca Alexandrina
05549124